التفسير الخارجي

obeikandl.com

obeikandl.com

التفسير الخوارجى

يذكر الدكتور محمد حسين الذهبى، رحمه الله، فى كتابه: " التفسير والمفسرون " لَدُنْ حديثه عن كتب تفسير القرآن التى خلّفها لنا الخوراج، أن التفاسير الخوارجية قليلة، وأنه عَلِم، أثناء إعداده بَحْثَه الآنفَ الذكر، بأسماء أربعة مفسرين منهم فقط هم هود بن محكم الهوارى وعبد الرحمن بن رستم الفارسى ويوسف بن إبراهيم الورجلانى ومحمد بن يوسف إطْفَيّش، وإن لم يصل من مؤلفاتهم إلا إلى تفسير " هميان الزاد إلى دار المعاد " للأخير، الذى له إلى جانب هذا التفسير تفسيران آخران أحدهما أكبر منه، لكنه لم يتمّ، والآخر تامّ لكنه أصغر. أما أنا فقد وقع تحت يدى ثلاثة تفاسير خوارجية إباضية هى " تفسير كتاب الله العزيز " لهود الهوارى و " هميان الزاد " لإطفيّش، و " جواهر التفسير " للخليلى، وذلك فى موقع " التفسير: www.altafsir.com " التابع لمؤسسة " أهل البيت " الملكية الأردنية. وقد نظرت فى التفسير الأول، وصاحبُه من أهل القرن الثالث الهجرى، فوجدته موجزا فى كثير من المواضع بحيث لا يتضح اتجاهه المذهبى فى تفسيره لكثير من الآيات. فمثلا تتبعت عددا من الآيات التى تقرر أن الهداية والإضلال إنما هما من الله، وعددا آخر من تلك التى تؤكد أنه سبحانه وتعالى خالق كل شىء، فلم أجد مفسرنا قال فيها شيئا خاصا. حتى مسألة رؤية الله لم أره أولاها اهتماما يُذْكَر رغم توفر المناسبات المتعلقة بها، اللهم إلا فى قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ

رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾} [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، حيث كتب ما يلى: " قال عز وجل: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ} أي: ناعمة {إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} أي: تنتظر الثواب، وهي وجوه المؤمنين. وحدثني مسلم الواسطي قال: سمعت أبا صالح يقول في قوله: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} قال: تنتظر الثواب من ربها. قال أبو صالح: ما رآه أحد ولا يراه أحد "، وهو واضح الدلالة على أنه يعتقد أن رؤية الله مستحيلة دنيا وأخرى استحالة مطلقة لا مثنوية فيها.

أما فى ارتكاب الخطيئة فقد كان الأمر مختلفا، إذ تناول ذلك الموضوع عدة مرات منها مثلا ما كتبه فى تفسير الآية ٨١ من سورة " البقرة "، ونصه: {بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً} [البقرة: ٨١] : يعني الشرك، {وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ} [البقرة: ٨١] ثم مات ولم يتب منه {فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [البقرة: ٨١]، وهذا كل ما هنالك، وإن كان اعتقاده فيما يخص صاحب الكبيرة واضحا، وهو أنه ما لم يتب فإن مصيره النار طبقا لما جاء فى الآية. بَيْدَ أنه لم يقل شيئا يميزه عن غيره من أصحاب المذاهب الأخرى، إذ لم يكد يقول غير ما تقوله الآية. لكنه، حين تناول قوله تعالى فى الآية رقم ٣٧ من سورة " النجم "، قد فصّل القول فيه، وإن لم يفصّل فى تبيان رأيه، بل اكتفى بمحاولة تعداد الكبائر وما يكتنفها من اختلاف، مع إبراز وجوب التوبة إن أراد مرتكبها غفرانا لذنبه. قال: "{ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾} [النجم: ٣٢]. قوله: { الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ}: ذكروا عن عبد الله بن

مسعود أنه قال: الكبائر من أول سورة " النساء " إلى رأس الثلاثين. قال عز وجل:{إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ} [النساء: ٣١]. ذكروا عن يحيى بن أبي كثير قال: قال رسول الله ﷺ: «**الكبائر تسع: الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وعقوق الوالدين المسلمين، وقذف المُحْصَنات، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والسحر، والفرار من الزحف، واستحلال البيت الحرام قبلتكم التي تَوَجَّهون إليها**». ذكروا عن الحسن قال: كان الفرار من الزحف يوم بدر من الكبائر خاصة. قال بعضهم: ويحدّثون أن الفرار من الزحف يوم ملحمة الروم الكبرى من الكبائر لأن المسلمين مجتمعون يومئذ كما كانوا يوم بدر. ذكروا عن الحسن قال: ذُكِرَت الكبائر عند النبي ﷺ فقال: «**أين تجعلون اليمين الغَمُوس؟**» ذكروا عن عوف قال: مر بنا أبو العالية الرياحي فقال: اتقوا كبائرَ تسعًا، إني أراها تسعًا وتسعًا وتسعًا، حتى عدَّ أربعين أو أكثر. غير واحد من العلماء المأخوذ عنهم والمقبول منهم قال: كل ما أوجب الله عليه الحد في الدنيا وأوعد عليه وعيدًا في الآخرة فهو كبيرة. وقال: وكل ما عذب الله عليه عذابًا في الدنيا أو في الآخرة فليس بصغيرة. ذكروا عن قيس بن سعد أن ابن عباس قال: كل ذنب تاب منه العبد فليس بكبيرة، وكل ذنب أقام عليه العبد حتى يموت فهو كبيرة. وقال بعضهم: كان يقال: لا قليل مع الإصرار، ولا كبير مع توبة واستغفار، والاستغفار مكنسة للذنوب. وقوله عز وجل:{ ٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ} [البقرة: ١٩٩] أي: لا تعودوا. تأويل هذا الحديث: إذا كان ذنبٌ فيما بين العبد وبين الله فالتوبة إلى الله والاستغفار يجزيانه باللسان. وإن كان ذنبٌ فيما بينه وبين الناس من القتل

وذهاب الأموال فلا يجزيه إلا القَوَد من نفسه والانتصال من أموال الناس إذا كان يقدر على ردّ أموالهم. ذكروا عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه يومًا: " ما تعدون الزنا والسرقة وشرب الخمر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: كبائر وفواحش، وفيهن العقوبة. ثم قال: أكبر الكبائر الإشراك بالله، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بحقها، وعقوق الوالدين. وكان متكئًا فجلس، ثم قال: ألا وقول الزور، ألا وقول الزور، ألا وإن لكل غادرٍ لواءً يُعْرَف به يوم القيامة بقدر غدْرته يُرْكَز عند مقعدته. ألا ولا غدرة أكبر من غدرة أمير عامة ". ذكروا عن سعيد مولى ابن عباس أنه ذُكِرت عنده الخمر فقال: ليست من الكبائر. فقال ابن عباس: بل هي أكبر الكبائر. إنه إذا شرب زنى وفعل وفعل. وقوله عز وجل:{إِلَّا ٱللَّمَمَ} [النجم: ٣٢] : ذكروا عن عكرمة قال: ما دون الحدين. كل ذنب ليس فيه حد في الدنيا ولا عذاب في الآخرة فهو اللَّمَم. وقال الحسن: اللَّمَم ما يُلِمّ به من الزنا والسرقة وشرب الخمر ثم لا يعود. تأويل حديث الحسن: أن يُلِمّ بشيء من هذا أن يفعله ولا يفعله ثم لا يعود أن يلمّ به. ذكروا عن أبي هريرة في اللمم أنه قال: العين تزني، وزناها النظر. واليد تزني، وزناها اللمس. والرجل تزني، وزناها المشي. والنفس تَهْوَى وتحدّث، ويصدّق ذلك ويكذّبه الفَرْج. ذكروا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال:«**كل بني آدم قد أصاب من الزنا لا محالة: فالعين تزني، وزناها النظر. واليد تزني، وزناها اللمس. والرِّجْل تزني، وزناها المشي. والنفس تَهْوَى وتحدّث، ويصدّق ذلك كله ويكذّبه الفَرْج**». ذكروا عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ:«**إن الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، كفارة لما بينهما ما اجتُنِبَتِ الكبائر**».

قوله عز وجل: {إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ} [النجم: ٣٢]، أي يغفر ما دون الكبائر، أي يكفّرها بالصلوات الخمس. قال غير واحد من العلماء: إن ما دون الكبائر مكفَّر محطوط، شرط من الله وثيق، وهو قوله: {إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [النساء: ٣١]. فإن اجتُنِبَتِ الكبائر كانت هذه السيئات مُكَفَّرَة مغفورة محطوطة باجتناب الكبائر. ذكروا عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الصلوات الخمس كمَثَلِ رجل على بابه نهرٌ جارٍ عذبٌ ينغمس فيه كل يوم خمس مرات، فماذا يبقى من دَرَنه؟**» وتفسير " دَرَنه ": إثمه ".

أما رأى الخليلى فى تفسيره الذى لم يتم منه إلا تفسير " الفاتحة " وبعض " البقرة " فهو أن وعيد الله لليهود فى الآية ٨١ من سورة " البقرة " بأن من كسب منهم سيئة وأحاطت به خطيئته لا يبقى فى النار أياما معدودة يخرج بعدها إلى النعيم كما زعموا بل هو مخلد فيها، هذا الوعيد ليس خاصا بهم، بل يعم كل خاطئ. قال: " ولا ينحصر هذا الوعيد في اليهود وحدهم، وإن كانوا السبب في نزول هذه الآيات، لأن الحكم العام لا ينحصر في سببه الخاص، وهو معنى قول الأصوليين: " لا عبرة بخصوص السبب مع عموم اللفظ ". وكثير من هذه الأمة راقت لهم، مع الأسف الشديد، هذه العقيدة التي سرت إليهم من الأفكار اليهودية البحتة، فأخذوا يؤولون الآيات الوعيدية تأويلا بعيدا عن مدلولها البيّن، ويحرّفون معانيها حتى تتفق مع معتقداتهم المخالفة للنصوص الجليّة، فحصروا السيئة هنا في الشرك مع فقدان أي قرينة شرعية أو وضعية تقيّد إطلاقها

إلا ما توهموه من أن قوله تعالى: {وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ} [البقرة: ٨١] يدل على ما ذهبوا إليه. والحقيقة عكس ما قالوه كما سيأتيكم بيانه. ومما يضاعف الأسف أن يتتابع الجمّ الغفير من الناس، ومن بينهم علماء نابهون، على تلقي هذه الفكرة بالقبول من غير تمحيص لها والنظر في مصدرها، والرجوع بها إلى الأدلة الظاهرة من الكتاب العزيز والسنة الصحيحة الثابتة. فقد أخذ اللاحق يتبع فيها أثر سابقه من غير تبصر وروية حتى إنهم أخذوا يشنعون على مخالفيهم فيها، ويكيلون لهم التهم كيلا، اللهم الا الذين ارتقَوْا عن حضيض التقليد وسَمَوْا إلى ذروة التحقيق فأبصروا الحقيقة الناصعة، فلم يستحيوا من تجليتها للمبصرين بأقلامهم المتحررة من أسر التقليد البغيض.

ومن بين هؤلاء الإمام محمد عبده القائل في هذه الآية: " السيئة هنا على إطلاقها، وخَصَّها مفسرنا الجلال وبعض المفسرين بالشرك. ولو صح هذا لما كان لقوله تعالى: {وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ} [البقرة: ٨١] معنى، فإن الشرك أكبر السيئات، وهو يستحق هذا الوعيد لذاته كيفما كان. ومعنى إحاطة الخطيئة هو حصرها لصاحبها، وأخذها بجوانب إحساسه ووجدانه، كأنه محبوس فيها لا يجد لنفسه مخرجا منها. يرى نفسه حرا مطلقا، وهو أسير الشهوات وسجين الموبقات ورهين الظلمات. وإنما تكون الإحاطة بالاسترسال في الذنوب، والتمادي على الإصرار، قال تعالى: {كَلَّا بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤} [المطففين: ١٤]، أي من الخطايا والسيئات. ففي كلمة{يَكۡسِبُونَ} معنى الاسترسال والاستمرار. وران عليه: غطّاه وستره. أي أن قلوبهم قد أصبحت في غُلُفٍ من ظلمات المعاصي

حتى لم يبق منفذ للنور يدخل إليها منه. ومن أحدث لكل سيئة يقع فيها توبة نصوحا وإقلاعا صحيحا لا تحيط به الخطايا ولا ترين على قلبه السيئات. روى أحمد والترمذي والحاكم وصححاه وابن ماجة وابن حبان وغيرهم من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ العبد إذا أذنب ذنبًا نُكِتَتْ في قلبه نكتة سوداء: فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله تعالى في القرآن: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** [المطففين: ١٤] ».

وقال أيضا: " ومن المفسرين من ترك السيئة في الآية على إطلاقها ولم يؤولها بالشرك ولكنهم أوّلوا جزاءها فقالوا: إن المراد بالخلود طول مدة المكث، لأن المؤمن لا يخلد في النار، وإن استغرقت المعاصي عمره وأحاطت الخطايا بنفسه فانهمك فيها طول حياته. أوّلوا هذا التأويل هروبا من قول المعتزلة: " إن أصحاب الكبائر يخلدون في النار "، وتأييدا لمذهبهم أنفسهم المخالف للمعتزلة. والقرآن فوق المذاهب يرشد إلى أن من تحيط به خطيئته لا يكون أو لا يبقى مؤمنا. وأتبع تلميذه العلامة السيد رشيد رضا كلامه هذا بيان ما يترتب على تأويل الخلود من القول بعدم خلود المشركين أيضا في النار. وإليكم نص قوله: " إنّ فتح باب تأويل الخلود يجرّئ أصحاب استقلال الفكر في هذا الزمان على الدخول فيه والقول بأن معنى خلود الكافرين في العذاب طول مكثهم فيه لأن الرحمن الرحيم الذي سبقت رحمته غضبه ما كان ليعذب بعض خلقه عذابا لا نهاية له لأنهم لم يهتدوا بالدين الذي شرعه لمنفعتهم لا لمنفعته، ولكنهم لم يفقهوا المنفعة. وإذا كان التقليد مقبولا عند الله كما يرى فاتحو الباب، فقد

وضح عذر الأكثرين لأنهم مقلدون لعلمائهم... إلى آخر ما يتكلم به الناس، ولا سيما في هذا العصر. فإن هذه المسألة قديمة، وهي أكبر مشكلات الدين. نعم إن العلماء يحتجون عليهم بالإجماع ولو سكوتيا، ولكن التأويل باب لا يكاد يسده، متى فُتِحَ، شيء.

وتعضد التأويلَ الصحيحَ الذي ذكرته من قبل، آثارٌ مرويةٌ عن السلف في تفسير " الخطيئة " وإحاطتها: فعن الحسن البصري أن رجلا سأل عن قوله: {وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ} [البقرة: ٨١] فقال: ما تدري ما الخطيئة يا بني؟ أتْلُ القرآن، فكل آية وعد الله عليها النار فهي الخطيئة. أخرجه ابن جرير. وأخرج عن سعيد عن قتادة أنه قال: أما الخطيئة فالكبيرة الموجبة. وعن عبد الرزاق عن قتادة أنه قال: الخطيئة الكبائر. وعن مجاهد أنه قال: كل ذنب محيط فهو ما وعد الله عليه النار. وعن الضحاك أنه قال في إحاطة الخطيئة: الموت عليها. ومثله عن الربيع بين خيثم. وعن الربيع أيضا أنه قال في الخطيئة: الكبيرة الموجبة. وعن السدي أنه قال: " أحاطت به خطيئته " فمات ولم يتب. وعن أبي رزين أنه قال: " أحاطت به خطيئته ": مات بخطيئته. أخرج هذه الآثار ابن جرير الطبري، ولا يمكن رد هذه الأقوال أو تأويلها بما يخالف ظاهرها لأجل روايات أخرى مَعْزُوَّة إلى بعض السلف، إذ ليس ما وافق القرآن والسنة كالذي خالفهما. ونصوص الكتاب العزيز والسنة الصحيحة قاضية بتعذيب أهل الكبائر وتخليدهم في العذاب، وحسبكم حجةً على صحة هذا التفسير للسيئة وإحاطتها حديثُ الرانِ السالف الذكر.

وإذا كانت عقيدة توقيت عذاب الآخرة جرّأت اليهود على ما جرّأتهم

عليه من نبذ الكتاب وانتهاك الحرمات وتعدي الحدود، فإن الذين تلقفوها عنهم من هذه الأمة أخذوا بحظ وافر من ذلك كله. فكم من حرمة ارتُكِبت، ومحرَّمة أبيحت، وحقيقة طُمِست تحت مظلة اعتقاد العفو عن أهل الكبائر بعدم دخول النار مطلقا أو تعذيبهم عذابا مؤقتا ينقلبون بعده إلى النعيم المقيم فيتساوَوْن مع البررة المتقين في المنزلة والثواب. فيا لله من هذه المصيبة في الدين! أين عقول هؤلاء من قوله تعالى: {أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾} [ص: ٢٨].

لكنني كنت أود لو وقف هؤلاء المفسرون إزاء الحديث التالي، وهو " أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هل تضارون في القمر ليلة البدر؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**فإنكم تَرَوْنه كذلك**». يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه. فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها، أو منافقوها (شك إبراهيم)، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاءنا ربنا عرفناه. فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم. فيقولون: أنت ربنا. فيتبعونه، ويُضْرَب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم، سَلِّمْ سَلِّمْ. وفي جهنم كلاليب مثل شوك السَّعْدان. هل رأيتم السعدان؟ قالوا: نعم يا رسول

الله. قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم ما قَدْر عِظَمها إلا الله. تخطف الناس بأعمالهم: فمنهم المؤمن يبقى بعمله، أو الموبَق بعمله أو الموثَق بعمله، ومنهم المخردل أو المجازى أو نحوه. ثم يتجلى، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يُخْرِج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يُخْرِجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يشهد ألا إله إلا الله. فيعرفونهم في النار بأثر السجود. تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود. حرَّم الله على النار أن تأكل أثر السجود. فيخرجون من النار قد امتُحِشوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون تحته كما تنبت الحبة في حميل السيل. ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار، هو آخر أهل النار دخولا الجنة، فيقول: أي رب، اصرف وجهي عن النار، فإنه قد قشبني ريحها، وأحرقني ذُكاؤها. فيدعو الله بما شاء أن يدعوه، ثم يقول الله: هل عَسَيْتَ، إن أُعْطِيتَ ذلك، أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا اسألك غيره. ويعطي ربه من عهودٍ ومواثيقَ ما شاء. فيصرف الله وجهه عن النار. فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب، قدِّمْني إلى باب الجنة. فيقول الله له: ألست قد أعطيت عهودك ومواثيقك ألاّ تسألني غير الذي أُعْطِيتَ أبدا؟ ويلك يا ابن آدم! ما أغدرك! فيقول: أي رب. ويدعو الله حتى يقول: هل عَسَيْتَ، إن أُعْطِيتَ ذلك، أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره. ويعطي ما شاء من عهود ومواثيق، فيقدمه إلى باب الجنة. فإذا قام إلى باب الجنة انفهقت له الجنة، فرأى ما فيها من الحبرة والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت، ثم

يقول: أي رب، أدخلني الجنة. فيقول الله: ألست قد أعطيت عهودك ومواثيقك ألا تسأل غير ما أُعْطِيتَ؟ فيقول: ويلك يا ابن آدم! ما أغدرك! فيقول: أي رب، لا أكونن أشقى خلقك. فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه، فإذا ضحك منه قال له: ادخل الجنة. فإذا دخلها قال الله له: تمنَّهُ. فسأل ربه وتمنى، حتى إن الله ليذكّره، يقول: كذا وكذا، حتى انقطعت به الأماني. قال الله: " ذلك لك، ومثله معه ". قال عطاء بن يزيد: وأبو سعيد الخدري مع أبي هريرة، لا يرد عليه من حديثه شيئا، حتى إذا حدّث أبو هريرة: أن الله تبارك وتعالى قال: " ذلك لك، ومثله معه " قال أبو سعيد الخدري: " وعشرة أمثاله معه " يا أبا هريرة. قال أبو هريرة: ما حفظت إلا قوله: " ذلك لك، ومثله معه ". قال أبو سعيد الخدري: أشهد أني حفظت من رسول الله ﷺ قوله: «**ذلك لك، وعشرة أمثاله**». قال أبو هريرة: فذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا الجنة ".

ورأيى ألا ننساق فى الإكثار من الجدال فى مثل تلك القضايا، لأن الجنة والنار هما من شأن الله عز شأنه، فلنترك الأمر لصاحب الأمر ولا نتخط حدودنا وننس قدرنا. والله رحيم كريم لطيف بعباده، خلقهم ضعفاء، وأحاطهم بما لا يحصى من البواعث والمغريات والمؤثرات. وهو سبحانه يعرف ظروف كل إنسان ومقدار طاقته وتحمله وحقيقة نيته. لهذا كله لا أريد أن أمضى فى علاج تلك المسألة أكثر من هذا، ولكنى دائما طامعٌ فى رحمته راجٍ عفوه وغفرانه آملٌ فيه كل خير. ولا أظنه إلا عند حسن ظن عباده به سبحانه جل وعلا. وأنا أرتاح عقلا ونفسا إلى ذلك الحديث، وأعده من دلائل عظمة الإسلام، فهو دين يحنو على الضعف البشرى ولا

يتلذذ بإقامة المشانق والمجازر للمخطئين، وكل عقاب لا بد له من حد ينتهى إليه، وإلا فأين رحمة الله وكرمه وحنوّه وعطفه على عباده؟ أليست رحمته تسبق دائما غضبه؟ وقد أكون بعد هذا كله مخطئا، لكننى لا أريد إلا الحق والخير، وليغفر الله لى زللى إن كنت زللت. إنما هو الطمع فى رحمة الله والإحساس الشديد بالضعف البشرى، ذلك الضعف الذى قررته الآية الكريمة التالية: {وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا} [النساء: ٢٨].

وقد أعجبنى رد بعض العلماء، وهو الشيخ حمود بن عقلاء الشعيبي، على سؤال خاص بمدى صحة القول بفَنَاء النار، وهذا نص ما قاله، ويجده القارئ فى موقع " المسك الأذفر: www.athfer.com". قال: " فإن هذه المسالة قد بُحِثَتْ وقُتِلَت بحثا منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وأئمة الهدى والدين وعلماء سلف الأمة المتقدمين منهم والمتأخرين. اختلف السلف فيها على قولين على ضوء ما جاء في الكتاب والسنة: القول الأول عليه جمهور سلف الأمة، وهو خلود النار ودوامها وعدم فنائها. القول الثاني لبعض السلف، وهو أن النار تبقى أحقابا ثم تفنى ويخرج منها أهلها إذا تهذبوا وتطهروا وزال عنهم درن الكفر بما ذاقوه من العذاب. وكل من القولين مأثور عن السلف، ويُنْظَر في أدلة الفريقين، فأيها كان أقوى دلالة كان هو القول الراجح. فأما القول الأول، وهو قول الجمهور، فمن أدلته قوله تعالى: {وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ} [الحجر: ٤٨]، وقوله تعالى: {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} [الفرقان: ٦٥]، أي ملازما دائما، وقوله تعالى: {وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ} [البقرة: ١٦٧]، وقوله تعالى: {لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾} [الزخرف: ٧٥]، وقوله تعالى: {خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا} [النساء:

٥٧]، وقولـه تعـالى: {وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ} [الأعراف: ٤٠]. أما القائلون بفناء النار فمن أدلتهم قوله تعالى: {قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام: ١٢٨]، وقولـه تعـالى: {فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾} [هود: ١٠٦ - ١٠٧]. وجه الدلالة من الآيتين أنه لم يأت بعد الاستثناء ما يدل على دوام النار كما جاء في شأن الجنة مما يدل على دوامها في قوله تعالى: {عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود: ١٠٨]، فدل على أن النار تفنى، والجنة نعيمها دائم لا ينقطع، وقوله تعالى: {لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾} [النبأ: ٢٣] : وجه الاستدلال من الآية أن الأحقاب أوقات معدودة محصورة لا بد لها من نهاية. كما استدلوا بآثار عن الصحابة كأبي هريرة وابن مسعود وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه. قالوا: ومن حيث المعنى فإن عذاب الكفار مراد بالعَرَض، ونعيم الجنة مراد لذاته. فما كان مرادا بالعرَض فإنه ينتهي بانتهاء ذلك العَرَض، وما كان مرادا لذاته فإنه يدوم ولا ينقطع. ومعنى مراد بالعَرَض يعني أن تعذيبهم عَرَض لأجل كفرهم. فإذا نُقُّوا وتطهروا بالعذاب زال عنهم درن الكفر فأصبح تعذيبهم لا حكمة فيه... إلى غير ذلك مما لم يُذْكَر. فإذا كان الأمر كذلك، أعني أن المسألة فيها قولان للسلف، فمن اجتهد وهو من أهل الاجتهاد وأخذ بأحد القولين فإنه لا يُنْكَر عليه ولا يضلَّل ولا يبدَّع، لأن السب والتجريح وتضليل الآخرين، وهم ليسوا كذلك، فيه إثم ومعصية، ويترتب عليه الاختلاف والفرقة التي نهى

الله عباده عنها ". ويرى الشيخ شلتوت (في كتابه: " العقيدة والشريعة في الإسلام " أنه " ليس في القرآن نص صريح في دوام النار، وإنما فيه التصريح بخلود الكفار فيها، وهو يتحقق بأنهم لا يخرجون منها ما دامت موجودة. وأما أنها تنقطع أو تدوم فهذا شيء آخر ليس في القرآن ما يقطع به " (ط. دار الشروق/ ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م/ ٤٣ - ٤٤).

وقد لاحظ الدكتور الذهبي في " التفسير والمفسرون " كذلك أن إطفيش، ولنلاحظ أنه من أهل القرن الرابع عشر الهجري، لدن تفسيره للآية ٣٥ من سورة " النساء "، وهي الآية الخاصة بالتحكيم بين الزوجين المتنازعين، يؤكد أنه لا دليل في الآية على جواز التحكيم إذا ظهر الحق. يريد أن يقول إنه لمن الوضوح بمكان أن الحق في الخلاف بين علي ومعاوية كان في صف علي، فكان يجب على ابن أبي طالب أن يرفضه. أما الهواري فكان موقفه مختلفا، إذ شرح دور الحَكَمَيْن في هذا السياق ولم يتطرق إلى التحكيم بين عليٍّ ومعاوية، ولم ينكر من ثَمّ على الأول قبوله ذلك التحكيم. بل إنه زاد فختم كلامه بذكر ما قاله عليٌّ رضي الله عنه في مسألة التحكيم بين الزوجين المتنازعين، وهو أن من حق الحَكَمَيْن أن يفرقا بين الزوجين إذا رأيا أن التفريق هو العلاج. وهذا نص كلامه: " وبلغنا عن علي بن أبي طالب أنه قال للحكمين: ذلك إليكما. إن رأيتما أن تفرّقا ففرّقا ". أريد أن أقول إن الهواري لم يحاول النيل من عليّ، بل زاد فاستشهد بكلامه بما يدل على احترامه له وإجلاله لعلمه وفضله.

ونفس الشيء في تفسيره للآيتين ٩ - ١٠ من سورة " الحجرات "

الخاصتين بالإصلاح بين أى طائفتين مسلمتين تقتتلان، إذ لا نجد فيما قاله شيئا يُشْتَمّ منه من قريب أو من بعيد رائحة إساءة أو حتى انتقاد لعلىّ كرم الله وجهه على عكس ما صنعه إطفيّش، رغم أن الهوارى كان قريب عهد بعلىّ وبأحداث الخلاف والقتال بينه وبين الخوارج بما كان حريا أن يدفعه إلى تخطئة رأيه على الأقل. لكنه اكتفى بإيراد سبب النزول وتفسير الآية فى ذاتها دون أن يسحبها على الخلاف بين علىّ ومعاوية أو بين علىّ وجماعة الخوارج الذى ينتمى هو إليهم.

ويتضح الفرق بين المفَسِّرَيْن إذا ما قرأنا كلام إطفيّش فى تفسير النصين المذكورين. قال فى نص سورة " النساء ": " ولا دليل فى الآية على جواز التحكيم، لأن مسألة الحال إنما هى ليتحقق بالحَكَمين ما قد يخفى من حال الزوجين، بخلاف ما إذا ظهر بطلان إحدى الفرقتين بأن الله قد حكم بقتالها. وأيضًا المراد هنا: الإصلاح مثلاً لا مجرد بيان الحق ". وفى نص سورة " الحجرات " يقول: " والإصلاح بالنصح والدعاء إلى حكم الله... وسمع علىٌّ رجلاً يقول فى ناحية المسجد: لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله، ولا نمنعكم الفىء ما دامت أيديكم فى أيدينا، ولا نبدؤكم بقتال. قلت: الحق أنه إذا حكم الله بحكم فى مسألة فلا حكم لأحد فيها سواه، فالحق مع الرجل، ولو كان علىٌّ أعلم عالِم ". أما تفسير الخليلى، وهو تفسير موسع، فلم يتم منه إلا تفسير " الفاتحة " وبعض " البقرة "، ومن ثم لا نستطيع أن نعرف رأيه فى هذه القضية. على أن هذا لا يعنى أننى أملى للخاطئين فى خطيئاتهم، بل أؤكد أنه بجب على كل منا نحن البشر أن يبذل قصارى جهده وإخلاصه، وليترك الأمر

بعد ذلك فى يد مولاه، ولن يخيب الكريم الرحيم حينئذ ظنه.

كذلك لاحظ الدكتور الذهبى على إطفيش اهتباله كل فرصة للثناء على الخوارج والحط من شأن على وعثمان كما صنع فى تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين ١٠٥ - ١٠٦ من سورة آل عمران:{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [آل عمران: ١٠٥ - ١٠٦]، إذ يقول بحق: " إن أمر الحَكَمين لم يكن حين نزلت الآية، بل فى إمارة علىّ. و{تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا} [آل عمران: ١٠٥] صيغتان ماضويتان، ولا دليل على صرفها للاستقبال، ولا على التعيين لمن ذكر ". إلا أنه يجور عن القصد حين يزعم أن الآية قد دلت على " خلوص الخوارج من ذلك، وعلى أنهم المحقون الذين تَبْيَضُّ وجوههم، فمَن خالفهم فهو داخل فى قوله تعالى:{فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [آل عمران: ١٠٦]. وهو يَعُمّ كل مَنْ كفر بعد إيمانه. واعلم أنه قد خرج على علىّ حين أذعن للحكومة صحابةٌ كثيرون رضى الله عنهم وتابعون كثيرون، فترى المخالفين يذمّون ويشتمون مَن خرج عنه ويلعنونه غير الصحابة الذين خرجوا عنه. والخروج واحد: إما حق فى حق الجميع، وإما باطل فى حق الجميع. فإذا كان حقًا في جنب الكل، فكيف يشتمون مَن خرج عليه غير الصحابة؟ وإن كان باطلاً فى جنب الكل، فقد استحق الصحابة الشتم أيضًا، عافاهم الله. ونرى المخالفين يروون أحاديث لم تصح عن رسول الله ﷺ، وقد يصح الحديث ويزيدون فيه. وقد يصح ويؤولونه فينا وليس فينا ".

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية ٣٩ من سورة " التوبة ":{إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ} [التوبة: ٣٩] يقول: " عن عمران بن حصين أن نصارى العرب كتبت إلى هرقل: إن هذا الرجل الذى يَدَّعِى النبوة هلك وأصابتهم سِنُون فهلكت أموالهم. فبعث رجلاً من عظمائهم وجهَّز معه أربعين ألفًا، فبلغ ذلك النبى ﷺ ولم يكن للناس قوة. وكان عثمان قد جهَّز عِيرًا إلى الشام، فقال: يا رسول الله، هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أُوقية. قال صاحب المواهب: قال عمران بن حصين: فسمعته يقول: «**لا يضر عثمانَ ما عمل بعدها**»، والعُهْدة على القسطلانى وعمران، فإن صح ذلك فمعنى ذلك الدعاء له بالخير لا القطع بأنه من أهل الجنة. وعن عبد الرحمن بن سمرة: جاء عثمان بن عفان بألف دينار فى كمه حين جهَّز جيش العُسْرة، فنثرها فى حجره ﷺ، فرأيت رسول الله ﷺ يقلبها فى حجره ويقول: «**ما ضرَّ عثمانَ ما عمل بعد اليوم**». فإن صح هذا فذلك أيضًا دعاء. وإنما قلت ذلك لأخبار سوء وردت فيه عن رسول الله ﷺ ".

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية ١٠٣ وما بعدها من سورة الكهف: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾} [الكهف: ١٠٣ - ١٠٦] يقول: " وزعم علىّ أنهم أهل حروراء، وهم المسلمون الذين خرجوا عنه لعدم رضاهم بالتحكيم فيما كان لله فيه حكم. وسأله ابن الكواء فقال: منهم حروراء. وسُئِل: أهم مشركون؟ فقال: لا. فقال:

أمنافقون؟ فقال: لا، بل إخواننا بَغَوْا علينا. وذلك خطأ تشهد به عبارته، لأنه ليس الإنسان إلا مؤمنًا أو مشركًا أو منافقًا. فإذا انتفى الشرك والنفاق عن أهل حروراء فهم مؤمنون. والمؤمن لا يُوصف بالبغى وهو مؤمن، ومَن بغى دخل فى حدود النفاق. وأيضًا الباغى مَن يرى التحكيم فيما كان لله فيه حكم، والسافك دماء مَن لم يتبعه على هذه الزلَّة. وأيضًا أهل حروراء لم يكفروا بآيات الله ولا بلقائه، بل مؤمنون بآيات الله وبالبعث. والأخسرون أعمالاً قد وصفهم الله سبحانه وتعالى بكفر الآيات واللقاء. ولست أقول ذلك معجبًا بنفسى ولا متعجبًا ممن عصى، بل حق ظهر لى فصرَّحتُ به ".

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية ٥٥ من سورة " النور ":{وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ} [النور: ٥٥] يقول: " قال المخالفون عن الضحاك: إن الذين آمنوا هم أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ، وإن استخلافَهم إمامتُهم العظمى. وسيأتى ما يدل على بطلان دخول عثمان وعلىّ فى ذلك... وفى أيام أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ وبعدهم كانت الفتوح العظيمة وتمكين الدين لأهله، لكن لا دليل فى ذلك على إصابة عثمان وعلىّ ". وعند تفسيره لقوله تعالى فى آخر الآية السابقة:{وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ} [النور: ٥٥] يقول: " أقول، والله أعلم بغيبه، إن أول مَن كفر بتلك النعمة وجحد حقها عثمان بن عفان: جعله المسلمون على أنفسهم وأموالهم، فخانهم فى كل ذلك. زاد فى مسجد رسول الله ﷺ ووسَّعه، وابتاع من قوم، وأبى آخرون فغصبهم، فصاحوا به فسيَّرهم للحبس، وقال: قد فعل بكم عمر هذا فلم تصيحوا به.

فكلَّمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد فأطلقهم من السجن، وقد جمع فى ذلك غَصْب المال وقَذْف عمر رضى الله عنه، واستعمل أخاه لأُمه، وهو الوليد بن عُقبة. ونزل{ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ } [الأنفال: ٢٥] بحضرة أبي بكر وعمر رضى الله عنهما، وعثمان وعلىّ، فقال لعثمان: " بك تُفْتَح وبك تُشَبّ ". وقال لعلىّ: " أنت إمامها وزمامها وقائدها. تمشى فيها مشى البعير فى قيده ". وقال: " لَضِرْسُ بعض الجلوس فى نار جهنم أعظم من جبل أُحُد ". وقال " يثور دخانها تحت قدمَىْ رجل يزعم أنه منى، وليس منى. ألا إن أوليائى المتقون ".

وعند تفسيره لقوله فى الآية ٢٣ من سورة " الشورى ":{قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ } [الشورى: ٢٣] يقول: " فمَوَدَّة قرابته ﷺ مَنْ لَم يُبدِّل منهم ولم يُغيِّر، مثل فاطمة وحمزة والعباس وابنه رضى الله عنهم، واجبة... لكن المراد بآله: آله الذين لم يُبَدِّلوا. فخرج علىّ ونحوه ممن بَدَّل، فإنه قتل مَنْ قال ﷺ: «لا يدخل قاتله الجنة». ولم يصح عندنا معشر الإباضية رواية أنه لما نزلت قيل: مَنْ قرابتك الذين تجب علينا مَوَدَّتهم؟ فقال: «علىّ وفاطمة وابناهما».

ولا ريب أن الغرور والخشونة والتألى على الله والجراءة فى حق أعاظم الصحابة الذين نصروا الإسلام ووضعوا أرواحهم على أكفهم استعدادا لبذلها هينة رخيصة فى سبيل الله، ولم يَألُوا مالا ولا جهدا ولا نصحا للإسلام ورب الإسلام ورسول الإسلام وأهل الإسلام، ونسبتهم إلى الضلال والفتنة والنفاق والكفر (أعوذ بالله من غضب الله!)، لا ريب أن هذا كله واضح بل صارخ فى كلام ذلك الإباضى، مما لا يقبله أى إنسان

فى رأسه شىء من العقل والفهم والذوق. وطبيعى أن يختلف مثلُه مع الشيعة، وله الحق، فى دعواهم حق على فى إمامة المسلمين بعد الرسول عليه الصلاة والسلام بوصفه ركنا سادسا فى الإسلام، وإن كنا فى ذات الوقت لا نشاح فى فضل على وأنه أحق بالخلافة من معاوية، إلا أننا لا نرى ذلك على سبيل الوراثة له ثم لذريته إلى أبد الآبدين، بل على سبيل أفضليته كرم الله وجهه على من نازعوه الأمر بما فيهم الخوارج بطبيعة الحال. وقد مضى رأينا فى هذا الأمر عند تناولنا التفاسير الشيعية بالدراسة، فلا لزوم من ثم لإعادة القول فى ذلك.

أما الهوارى فلم يتطرق إلى شىء من هذا السخف والتنطع والتطاول الغبى، ولا أزيد، ونزَّه قلمه عن ذلك كله، فله الشكر. وكل ما عمله هو أنه فى تفسير قوله تعالى فى سورة " الشورى ": {قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ} [الشورى: ٢٣] قد ذكر ما يلى: قوله: {قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ}: ذكروا عن عكرمة قال: كان النبي عليه السلام واسطًا في قريش، ليس في بطون قريش بطن إلا وقد ولده. فقال: {قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ}، أي إلا أن تراعوا ما بيني وبينكم من القرابة فتصدقوني. وقال الحسن: {إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ}، أي إلا أن يتقرّبوا إلى الله بالعمل الصالح. وهو كقوله: {قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ٥٧} [الفرقان: ٥٧]، أي بطاعته "، فوسَّع معنى القرابة بحيث جعلها فى قريش عامة، أو فى المطيعين من المسلمين بوجه أعم، ولم يحصرها فى بنى هاشم خاصة. ليس ذلك فحسب، بل إنه لدى تناوله قوله عز وجل من سورة " الأحزاب ": " إنما يريد الله لِيُذْهِب عنكم الرِّجْسَ

أهلَ البيت ويطهّركم تطهيرا " لم يتلجلج فى القول بأنهم " ذكروا عن أنس بن مالك قال: " إن رسول الله ﷺ كان يمر بباب علي وفاطمة ستة أشهر، وإذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: الصلاة يا أهل البيت.{إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } [الأحزاب: ٣٣]. قال بعضهم: بلغنا أن هذه الآية نزلت على النبي ﷺ في بيت أم سلمة ". أى أن موقف الخوارج الذين ينمى إليهم لم يمنعه من ذكر على فى هذا السياق الشريف حسبما جاءت به الروايات.

وهو، كسائر أهل مذهبه، لا يؤمن بأن لعلىٍّ حقا فى خلافة النبى عليه السلام بعد وفاته، بيد أنه حين يقول هذا يقوله دون أدنى إساءة أو تشنج. ولنقرأ تفسيره للآية ٧١ من سورة " التوبة ": " قوله:{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾} [المائدة: ٥٥]. قال الحسن: هو كقوله:{ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ } [التوبة: ٧١] وكقوله:{ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟} [البقرة: ٢٥٧] وكقوله:{وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ } [الأعراف: ١٩٦]. قال الكلبي: بلغنا أن عبد الله بن سلام ورهطًا من مسلمي أهل الكتاب أتوا النبي عند صلاة الظهر فقالوا: يا رسول الله، إن بيوتنا قاصية، ولا نجد متحدَّثًا دون المسجد، وإن قومنا لما رأوْنا قد قصدْنا الله ورسوله وتركناهم ودينهم أظهروا لنا العداوة، وأقسموا ألا يخالطونا ولا يجالسونا، فشق ذلك علينا. فبينما هم يشكون ذلك إلى النبي إذ نزلت هذه الآية، فلما قرأها رسول الله ﷺ قالوا: رضينا الله ورسوله والمؤمنين أولياء. وأذن بلال بالصلاة. فخرج رسول الله ﷺ والناس يصلون بين قائم وراكع وساجد ". فهو، كما ترى، يفسر الآية بعيدا عن علىٍّ وذريته

تماما. وأنا أرى أن هذا هو أحسن تفسير لها، وقد قلت شيئا شبيها جدا به فى كتابى: " سورة المائدة- دراسة أسلوبية فقهية مقارنة ". غير أن ما أود التنبيه إليه هو أن الهوارى لم يحاول قطّ المِسَاس بعلىٍّ كرم الله وجهه بأى طريق. ويزيد صنيعه هذا كرمًا أنه كان جِدَّ قريبٍ عهدٍ بعلى واصطدامه بالخوارج، على عكس إطفيش ابن القرن الرابع عشر الهجرى، الذى لم يستطع رغم تطاول الدهر أن يرتقى بفكره وشعوره عن حززات الماضى اللعين ولا عن سخائم قلبه المملوء قيحا وصديدا ضد صهر رسول الله.

ودائما ما يؤوّل إطفيش آيات الصفات المشعرة بمشابهة الله سبحانه وتعالى لعباده، ولا يقبل موقف من يتوقف عن تأويلها حتى لو قال إنه يفوض كيفيتها إلى الله جل وعلا. وهو موقف متحكم، وإن كنت أنا شخصيا أميل إلى التأويل ابتعادا عما يمكن أن يقع فيه بعض الناس من توهم المشابهة بين الله وعباده، إذ كثيرا ما أقول لنفسى: من يدرى؟ ربما كان المثبتون المفوّضون أقرب إلى الحقيقة: فهذا غيب. ثم إنه أمرٌ يختص بالله سبحانه، ولا يستطيع أحد منا أن يقطع بأن ما يراه هو الصواب الذى لا شائبة فيه، بل كل ما يمكننا قوله أن هذا هو الذى يبدو لنا مقنعا، أو على الأقل: أقرب إلى العقل. علاوة على أنه ليس فى موقف المثبتين المفوضين ما يسىء إلى جلال الألوهية. وهم، حين يصنعون ذلك، إنما يصنعونه احتراما للنص القرآنى وخوفا من الوقوع فى الخطإ بما يمكن أن يسىء إلى تصورنا لجلاله عزت قدرته. وبهذا الأسلوب يرى أصحاب الإثبات والتفويض أنهم يلزمون حدودهم، إذ يقولون إننا لا نعرف كيفية اتصافه سبحانه باليد والوجه والمجىء وما إلى ذلك. وهذا من التواضع

بمكان، وإن كان بعضهم يتصلب بدوره مثلما يتصلب إطفيَش وأمثاله فيحملون على المؤوّلة حملة شعواء كأن من يؤوّلون قد كفروا أو ضلوا السبيل. الخلاصة أننى أرى أن كلا الفريقين مقبول إن شاء الله، والمهم ألا يكون هناك تجسيد من ناحية المثبتين، أو ينتهى الأمر إلى التعطيل عند المؤولين. وكله اجتهاد مشكور يدل على الإيمان بالنص القرآنى فى إطار النزعة العقلية التى وُهِبَها كل من الفريقين.

وهذه بعض أمثلة على نزعة مفسرنا الإباضى فيما يتعلق بآيات الصفات: ففى تفسيره لقوله تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾} [البقرة: ٢١٠] يقول: {إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ} [البقرة: ٢١٠]، على حذف مضاف، أي أمر الله، بدليل قوله تعالى: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ} [الأنعام: ١٥٨]، أو بأس الله كقوله سبحانه: {جَآءَهُم بَأْسُنَا} [الأنعام: ٤٣] أو على حذف المتعلق، أى إلا أن يأتيهم الله بأمره، كما ورد ما يقرب منه فى آية أخرى، أو ببأسه كما يدل له{عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة: ٢٠٩]، فإن العزة فى حكمة تناسب البأس الذى لا يطاق، وهى صفة قهر. والعزة بلا حكمة قد تضيع حيلها وعدتها، وهذا فى الجملة. والله منزه عن الحيلة، وهذه الباء المقدرة للتعدية كهمزة التصيير، أى إلا أن يصير الله أمره أو بأسه آتيًا. والمعنى فى ذلك كله واحد، ولا بد من المصير إليه لأن الله تعالى منزَّه عن الحركة والسكون لأنهما يستلزمان الحد والتحيز والجهة والتركب والعجز والحدوث وغير ذلك من صفات الخلق. والحاصل أن مذهبنا ومذهب هؤلاء (أى المعتزلة) ومن وافقهم تأويل الآية عن ظاهرها إلى ما

يجوز وصف الله به ". وعند تفسير قوله تعالى:{وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ} [المائدة: ٤٢] نراه يورد الحديث القائل: " إن المقسطين على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين "، ثم يفسر ذلك قائلا إن " يمين الرحمن عبارة عن المنزلة الرفيعة، والعرب تذكر اليمين فى الأمر الحسن، ودَلَّ لذلك قوله: " وكلتا يديه يمين ". والتأويل فى مثل ذلك هو الحق. وأما قول سَلَف الأشعرية فى مثل ذلك: إنَّا نؤمن به وننزهه عن صفة الخلق ونكل معناه إلى الله ونقول: هو على معنى يليق به، وكذا طوائف من المتكلمين، فجمودٌ وتعامٍ عن الحق. ووافقنا متأخروهم فى التأويل ". وفى تفسيره لقوله تعالى:{إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ} [الأعراف: ٥٤] يقول: " واستوى: بمعنى استولى بالملك والغلبة والقوة والتصرف فيه كيف شاء. والعرش: جسم عظيم. وذلك مذهبنا ومذهب المعتزلة وأبى المعالى وغيره من حُذَّاق المتكلمين، وخص العرش بذكر الاستيلاء لعظمته ". وفى تفسيره لقوله عز شأنه عن موسى عليه السلام:{وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ}

[طه: ٣٩] يقول: "{عَلَىٰ عَيْنِىٓ}: على رعايتى وحفظى لك. فالعين كناية عن الحفظ، ولا عين هناك. وإن شئت فقل: مجاز مرسل من باب إطلاق اسم الآلة على ما يعمل بها، ولا عين أيضا ". وفى تفسيره لقوله جل علاه:{إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [الفتح: ١٠] يقول: " وقيل: (يده): نصره. فوق أيديهم: أي فوق نصرهم. أو (يده): حفظه، وأيديهم: جوارحهم. ومن زعم أنا نترك هذه التفاسير إلى السكوت عن التأويل

وإلى الايمان بظاهرها: اليد من غير تكييف ولا تعطيل، فقد اختار الحيرة والضلالة بعد ظهور الحق. وصَحَّ قول بعض: يده وأيديهم: القوة، وقول بعض: يده: ثوابه، وقول بعضٍ، ونُسِب للجمهور: يده: نعمته. هي في المبايعة لما يستقبل من محاسنها فوق أيديهم الممتدة للبيعة ". وفى تفسير قوله سبحانه: " (الرحمن) نراه يقول: "{وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ } [الرحمن: ٢٧]، أي ذاته. والمخلوقات كلها فانية في حد ذاته، وإن وجدت ".

وكما قلت فإننى أميل إلى التأويل بوجه عام، إلا أنه ليس من الحصافة رمى إطفيش لمن يخالفونه بالجمود والتعامى عن الحق. فهل هو على يقين بأن ما يصنعه هو الحق الذى لا حق سواه؟ كما أنه ليس من التنزيه البتَّةَ أن يقول عن العرش إنه جسم عظيم! الله أكبر! وهل هذا إلا التجسيم بعينه الذى فرّ هو وأشباهه منه؟ إن موقف المُثْبتة المفوِّضة هنا لأسلم مليار مرة من كلامه هذا، إذ هم يفوضون الكيفية التى عليها العرش إلى علم الله سبحانه، أما هو فقد جعله عرشا ماديا، وهو ما يستتبع أن يكون استواؤه سبحانه وتعالى على ذلك العرش استواء ماديا أو شيئا من هذا القبيل. أليس كذلك؟ أما رميه بالحيرة والضلال من يخالفونه فى التأويل مكتفين بإثبات اليد لله وتفويض كيفيتها أو معناها إلى الله فلا معنى له، علاوة على ما فيه من غرور واستعلاء، إذ لا حيرة ولا يحزنون، بل كل ما هنالك أن هذا هو ما يرتاحون إليه. وهم فى ذات الوقت يؤمنون بما قاله من أن الله كان مع أهل بيعة الرضوان بنصره وتأييده، وإن لم يؤولوا الآية كما أولها هو.

أما الهوارى، رحمه الله، فلا يتعرض عادة للجوارح المنسوبة لله

بتأويل ولا حتى بتفسير، بل يتركها ويمضى مكتفيا بإعطاء المعنى العام للآيات، وبهذا أراح واستراح وخرج من العهدة ولم يصبّ على الزيت نارا. وهذه بضع أمثلة من طريقته فى تناول مثل تلك النصوص. قال فى الآية العاشرة من سورة " الفتح ": " قوله:{إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ } [الفتح: ١٠]، أي من بايع رسول الله ﷺ فإنما بايع الله. وهذا يوم الحديبية، وهي بيعة الرضوان. بايعوه على ألا يفروا. ذكروا عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله قال: بايعْنا رسول الله ﷺ على ألاَّ نفرّ، ولم نبايعه على الموت ". وفى الآية رقم ٢٧ من سورة " الرحمن "، وهى الخاصة بالوجه يكتفى مفسرنا المريح المستريح بما نصه: "{وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ} [الرحمن: ٢٧]، أي العظمة{وَٱلْإِكْرَامِ }، أي لأهل طاعته ". ترى هل هناك ما هو أبسط من هذا وأبعد عن الجدال وأقصد إلى المراد؟ وحتى حين يفسر مثل تلك النصوص فإنه يكتفى بأقل القليل ولا يدخل فى جدال ولا يسفّه أحدا، كما فى قوله تعالى عن العين فى كل من الآية الخامسة والآية التاسعة والثلاثين من سورة " طه "، إذ كل ما قاله فيهما على الترتيب هو: " قوله عز وجل:{وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ} [طه: ٣٩]، أي بأمري. وقال بعضهم: ولتغذى على عيني، أي بعيني ". وهو، كما يرى القارئ، أقرب إلا ألا يكون قد أوّل، "{ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥} [طه: ٥] قال: استوى أمره في بريته فعلاهم فليس يخلو منه مكان "، وإن كان لا بد من التنبيه إلى أن قوله: " لا يخلو منه مكان " قد يوهم أن الأمكنة تحتويه جل وعلا، وهو ما لا يمكن أن يكون لأنه هو خالق الأمكنة والأزمنة

والأشخاص والأشياء. إنما هى مفارقات اللغة الإنسانية، ولذلك لا أقف أمامها طويلا، ولا أظن إلا أنه حسن النية.

* * *

obeikandl.com

التفسير العلمي

obeikandl.com

obeikandl.com

التفسير العلمى

ينقسم العلماء تلقاء التفسير العلمى للقرآن المجيد: فبعضهم يحبّذه ويرحّب به، وبعضهم يضيق به صدرًا ويدعو إلى الابتعاد عنه، خوفًا من توريط القرآن فيما لا تحمد عقباه حين يعمل المفسر العلمى على إنطاق النص القرآنى عَنْوَةً وكَرْهًا بما يعضّد نظرية من النظريات ثم يثبت بطلانها فيما بعد، مما ينسحب على القرآن ذاته ويوقع فى رُوع القراء أن الخطأ إنما يكمن فى النص نفسه لا فى المفسر. هذا، وقد يُظَنّ أن التفسير العلمى للقرآن المجيد هو شىء طارئ فى عصرنا وأن الانقسام حوله من ثَمّ أمر جديد على ساحة البحوث الإسلامية. لكن هذا غير صحيح، فالتفسير العلمى قديم، وكذلك انقسام العلماء بشأنه. ومن الذين وافقوا من علمائنا القدامى على هذا اللون من التفسير الإمام الغزالى والإمام السيوطى. أما المعارضون فمنهم الشاطبى (انظر د. محمد حسين الذهبى/ علم التفسير/ ٧٣ - ٧٦).

ومن يرد تفصيلا أكبر لهذا الموضوع يستطع الرجوع إلى موسوعته المسماة بـ " التفسير والمفسرون " حيث يقرأ ما يلى عن أبى حامد الغزالى والسيوطى والمُرْسِىّ والشاطبى وموقفهم من ذلك الضرب من التفسير. يقول رحمه الله: " ويظهر لنا على حسب ما قرأنا أن الإمام الغزالى كان إلى عهده أكثر مَنِ استوفى بيان هذا القول فى تفسير القرآن، وأهم مَنْ أيده وعمل على ترويجه فى الأوساط العلمية الإسلامية على

رغم ما قرر فيها من قواعد فهم عبارات القرآن. وبين أيدينا كتاب " الإحياء " للغزالى نتصفحه فنجده يعقد الباب الرابع من أبواب " آداب تلاوة القرآن " فى فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل. وفيه ينقل عن بعض العلماء " أن القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتى علم، إذ كل كلمة علم، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن، وحد ومطلع "، ثم يروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: " مَن أراد علم الأوَّلين والآخرين فليتدبر القرآن "، ثم يقول بعد ذلك كله: " وبالجملة فالعلوم كلها داخلة فى أفعال الله عَزَّ وجَلَّ وصفاته، وفى القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفى القرآن إشارة إلى مجامعها "، ثم يزيد على ذلك فيقول: " بل كل ما أشكل فهمه على النُظَّار واختلف فيه الخلائق فى النظريات والمعقولات ففى القرآن إليه رموز، وعليه دلالات يختص أهل الفهم بدركها ". ثم إننا نتصفح كتابه " جواهر القرآن " الذى ألَّفه بعد الإحياء كما يظهر لنا من مقدمته، فنجده يزيد هذا الذى قرره فى الإحياء بيانًا وتفصيلاً، فيعقد الفصل الرابع منه لكيفية انشعاب العلوم الدينية كلها وما يتصل بها من القرآن عن تقسيمات وتفصيلات تولاها لا نطيل بذكرها، ويكفى أن نقول: إنه قسم علوم القرآن إلى قسمين: الأول علم الصَّدَف والقشر، وجعل من مشتملاته علم اللُّغة، وعلم النحو، وعلم القراءات، وعلم مخارج الحروف، وعلم التفسير الظاهر. والثانى علم اللُّباب، وجعل من مشتملاته علم قصص الأوَّلين، وعلم الكلام، وعلم الفقه، وعلم أُصول الفقه، والعلم بالله واليوم الآخر، والعلم بالصراط المستقيم، وطريق السلوك. ثم يعقد

الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن، فيذكر علم الطب والنجوم، وهيئة العالَم، وهيئة بدون الحيوان، وتشريح أعضائه، وعلم السحر، وعلم الطلسمات... وغير ذلك، ثم يقول: " ووراء ما عددته علوم أُخرى يُعْلَم تراجمها ولا يخلو العالَم عمن يعرفها، ولا حاجة إلى ذكرها، بل أقول: ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التى لا يُتَمَارى فيها أن فى الإمكان والقوة أصنافًا من العلوم بعدُ لم تخرج من الوجود، وإن كان فى قوة الآدمى الوصول إليها، وعلوم كانت قد خرجت من الوجود واندرست الآن، فلن يوجد فى هذه الأعصار على بسيط الأرض مَن يعرفها، وعلوم أُخَرُ ليس فى قوة البشر أصلا إدراكها والإحاطة بها، ويحظى بها بعض الملائكة المقرَّبين، فإن الإمكان فى حق الآدمى محدود، والإمكان فى حق المَلَك محدود إلى غاية من النقصان، وإنما الله سبحانه هو الذى لا يتناهى العلم فى حقه ".

ثم يقول بعد ذلك: " ثم هذه العلوم: ما عددناها وما لم نعددها ليست أوائلها خارجة من القرآن، فإن جميعها مغترَفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى، وهو بحر الأفعال. وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كان مِدَادًا لكلماته لنَفِدَ البحر قبل أن تنفد. فمن أفعال الله تعالى، وهو بحرٌ، الشفاء والمرض كما قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم:{وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾} [الشعراء: ٨٠]. وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا مَن عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه. ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحُسْبان، وقد قال الله تعالى:{ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾}

[الرحمن: ٥]، وقال: {وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ} [يونس: ٥]، وقال: {وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾} [القيامة: ٨ - ٩]، وقال: {يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ} [الحج: ٦١] وقال: {وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾} [يس: ٣٨]. ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبانٍ وخسوفهما، وولوج الليل فى النهار وكيفية تكور أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض، وهو علم برأسه. ولا يعرف كمال معنى قوله: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾} [الانفطار: ٦ - ٨] " إلا مَن عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهرًا وباطنًا وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها... وكذلك لا يعرف معنى قوله: {سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى}، [الحجر: ٢٩] ما لم يعلم التسوية والنفخ والروح، ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق، وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالِم بها. ولو ذهبت أُفَصِّل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال، ولا يمكن الإشارة إلا إلى مجامعها. فتفكر فى القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأوَّلين والآخرين ".

كذلك نجد العلامة جلال الدين السيوطى ينحو منحى الغزالى فى القول بالتفسير العلمى، ويقرر ذلك بوضوح وتوسع فى كتابه " الإتقان " فى النوع الخامس والستين منه، كما يقرر ذلك أيضًا بمثل هذا الوضوح والتوسع فى كتابه " الإكليل فى استنباط التنزيل "، ونجده يسوق من

الآيات والأحاديث والآثار ما يستدل به على أن القرآن مشتمل على كل العلوم. فمن الآيات قوله تعالى فى الآية ٣٨ من سورة الأنعام: {مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ} [الأنعام: ٣٨]، وقوله فى الآية ٨٩ من سورة النحل: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ} [النحل: ٨٩]. ومن الأحاديث ما أخرجه الترمذى وغيره: أن رسول الله ﷺ قال: «**ستكون فتن**»، قيل: وما المخرج منها؟ قال: " كتاب الله. فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما يعدكم، وحكم ما بينكم "، وما أخرجه أبو الشيخ عن أبى هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لو أغفل شيئًا لأغفل الذّرَّة والخردلة والبعوضة**». ومن الآثار ما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود أنه قال: " مَن أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه خبر الأوَّلين والآخرين "، وما أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: " أَنْزلَ فى القرآن كل علم، وبَيَّنَ لنا فيه كل شىء، لكن علمنا يقصّر عما بَيَّنَ لنا فى القرآن ". ثم نجده بعد أن يسوق هذه الأدلة وغيرها يذكر لنا عن بعض العلماء أنه استنبط أن عمر النبى ﷺ ثلاث وستون سنة من قوله تعالى فى الآية ١١ من سورة المنافقون: {وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا} [المنافقون: ١١]، فإنها رأس ثلاث وستين سورة، وعقَّبها بـ " التغابن " ليظهر التغابن فى فقده ".

ثم يذكر الدكتور الذهبى قول أبى الفضل المرسى فى تفسيره إن القرآن قد " جمع علوم الأوَّلين والآخرين، بحيث لم يحط بها علمًا حقيقةً إلا المتكلم به، ثم رسول الله ﷺ خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم، مثل الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس حتى قال: لو ضاع لى عقال بعير لوجدته فى

كتاب الله تعالى، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه، فنوَّعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه: فاعتنى قوم بضبط لغاته وتحرير كلماته ومعرفة مخارج حروفه وعددها وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه وعدد سجداته والتعليم عند كل عشر آيات... إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة والآيات المتماثلة من غير تعرض لمعانيه ولا تدبر لما أُودِع فيه، فسُمُّوا: القُرَّاء. واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبنى من الأسماء والأفعال، والحروف العاملة وغيرها، وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال واللازم والمتعدى ورسوم خط الكلمات، وجميع ما يتعلق به، حتى إن بعضهم أعرب مشكله، وبعضهم أعربه كلمة كلمة. واعتنى المفسِّرون بألفاظه، فوجدوا منه لفظًا يدل على معنى واحد، ولفظًا يدل على معنيين، ولفظًا يدل على أكثر، فأَجْرَوُا الأول على حُكْمه، وأوضحوا معنى الخفيّ منه، وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذى المعنيين والمعانى، وأعمل كل منهم فكره وقال بما اقتضاه نظره. واعتنى الأُصوليون بما فيه من الأدلة القطعية والشواهد الأصلية والنظرية، مثل قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا} [الأنبياء: ٢٢]... إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منها أدلة على وحدانية الله ووجوده وبقائه وقِدَمه وقُدرته وعلمه وتنزيهه عما لا يليق به، وسَمَّوْا هذا العلم بـ " أُصول الدين ". وتأملت طائفة منهم معانى خطابه، فرأت منها ما يقتضى العموم، ومنها ما يقتضى الخصوص، إلى غير

ذلك، فاستنبطوا منه أحكام اللُّغة من الحقيقة والمجاز، وتكلموا فى التخصيص والإضمار والنص والظاهر والمُجْمَل والمُحْكَم والمتشابه والأمر والنهى والنسخ... إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة، واستصحاب الحال والاستقراء، وسَمَّوْا هذا الفن: " أصول الفقه ". وأحكمت طائفةٌ صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام، فأسسوا أُصوله وفرَّعوا فروعه وبسطوا القول فى ذلك بسطًا حسنًا، وسَمَّوْه بـ " علم الفروع "، وبـ " الفقه " أيضا. وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السابقة والأُمم الخالية ونقلوا أخبارهم ودوَّنوا آثارهم ووقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء وسَمَّوْا ذلك بـ " التاريخ ". وتنبَّه آخرون لما فيه من الحِكَم والأمثال والمواعظ التى تقلقل قلوب الرجال، وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد والتحذير والتبشير وذكر الموت والمعاد والنشر والحشر والحساب والعقاب والجنَّة والنار فصولا من المواعظ وأُصولا من الزواجر، فسُمُّوا بذلك: " الخطباء والوُعَّاظ ". واستنبط قوم ما فيه من أصول التعبير، مثل ما ورد فى قصة يوسف فى البقرات السمان، وفى منامَىْ صاحبى السجن، وفى رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة، وسَمَّوْه: " تعبير الرؤيا "، واستنبطوا تأويل كل رؤيا من الكتاب. فإن عَزَّ عليهم إخراجها منه فمن السُّنَّة التى هى شارحة للكتاب. فإن عَزَّ فمن الحِكَم والأمثال. ثم نظروا إلى اصطلاح العوام فى مخاطباتهم وعُرْف عاداتهم، الذى أشار إليه القرآن بقوله: {وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ} [لقمان: ١٧]. وأخذ قوم مما فى آيات المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك علم الفرائض، واستنبطوا

منها مِنْ ذكر النِصْف والثُّلُث والرُّبُع والسُّدُس والثُّمُن حساب الفرائض ومسائل العدل، واستخرجوا منه أحكام الوصايا. ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحِكَم الباهرة فى الليل والنهار والشمس والقمر ومنازله والبروج وغير ذلك فاستخرجوا منه علم المواقيت. ونظر الكُتَّاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللَّفظ وبديع النظم وحُسْن السياق والمبادىء والمقاطع والمخالص والتلوين فى الخطاب والإطناب والإيجاز وغير ذلك، واستنبطوا منه المعانى والبيان والبديع. ونظر فيه أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة فلاح لهم من ألفاظه معانٍ ودقائقُ جعلوا لها أعلامًا اصطلحوا عليها، مثل: الفناء والبقاء والحضور والخوف والهيبة والأُنس والوحشة والقبض والبسط وما أشبه ذلك. هذه الفنون أخذتها المِلَّة الإسلامية منه. وقد احتوى على علومٍ أُخَرَ من علوم الأوائل مثل: الطّب والجدل والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنِّجَامة وغير ذلك من العلوم. أما الطب فمداره على نظام الصحة واستحكام القوة، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة. وقد جمع ذلك فى آية واحدة، وهى قوله تعالى: {وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا} [الفرقان: ٦٧]، وعرفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله، وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله فى قوله تعالى: {شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ} [النحل: ٦٩]. ثم زاد على طب الأجسام بطب القلوب وشفاء الصدور. وأما الهيئة ففى تضاعيف سوره من الآيات التى ذكر فيها ملكوت السموات والأرض وما بث فى العالم العلوى والسفلى من المخلوقات. وأما الهندسة ففى قوله تعالى: {ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾} [المرسلات: ٣٠ - ٣١]، فإن فيه

قاعدة هندسية، وهو أن الشكل المثلث لا ظل له. وأما الجدل فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج والقول بالموجب والمعارضة وغير ذلك شيئًا كثيرًا، ومناظرةُ إبراهيم نمرود ومحاجَّتُه قومَه أصلٌ فى ذلك عظيم. وأما الجبر والمقابلة فقد قيل إن أوائل السور فيها ذكر مُدَد وأعوام وأيام التواريخ لأُمم سالفة، وإن فيها بقاء هذه الأمة وتاريخ مدة أيام الدنيا وما مضى وما بقى مضروبا بعضها فى بعض. وأما النجامة ففى قوله تعالى: {أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ} [الأحقاف: ٤]، فقد فسَّره بذلك ابن عباس. وفيه أُصول الصنائع وأسماء الآلات التى تدعو الضرورة إليه، كالخياطة فى قوله: {وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ} [الأعراف: ٢٢]، والحدادة: {ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ} [الكهف: ٩٦]، والبناء فى آيات، والنجارة: {وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا} [هود: ٣٧]، والغزل: {نَقَضَتْ غَزْلَهَا} [النحل: ٩٢]، والنسج: {كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا} [العنكبوت: ٤١]، والفلاحة: {أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾} [الواقعة: ٦٣] ... الآيات، والصيد فى آيات، والغوص: {وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾} [ص: ٣٧]، {وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً} [النحل: ١٤]، والصياغة: {وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ} [الأعراف: ١٤٨]، والزِّجاجة: {ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ} [النور: ٣٥]، {مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَا۠} [النمل: ٤٤]، والفِخَارة: {فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ} [القصص: ٣٨]، والملاحة: {أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ} [الكهف: ٧٩].... الآية، والكتابة {عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾} [الرحمن: ٢] وفى آيات أُخر، والخَبْز: {أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا} [يوسف: ٣٦]، والطبخ: {بِعِجْلٍ حَنِيذٍ} [هود: ٦٩]، والقِصارة: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾} [المدثر: ٤]، {قَالَ لَهُ حَوَارِيُّونَ} [آل عمران: ٥٢] وهم القصَّارون، والجزارة: {إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ} [المائدة: ٣]، والبيع والشراء فى آيات، والصبغ: {صِبْغَةَ ٱللَّهِ} [البقرة:

١٣٨]، {جُدَدٌۢ بِيضٌ} [فاطر: ٢٧]، والحجارة:{وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا} [الشعراء: ١٤٩]، والكِيَالة والوزن فى آيات كثيرة، والرمى:{وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ} [الأنفال: ١٧]، {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ} [الأنفال: ٦٠]. وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات وجميع ما وقع ويقع فى الكائنات ما يحقق معنى قوله:{مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ} [الأنعام: ٣٨]. قال السيوطى: انتهى كلام المرسى ملخصًا مع زيادات. ثم بعد روايته لهذه المقالة الطويلة نجده يذكر عن أبى بكر بن العربى أنه قال فى كتابه: " قانون التأويل ": " علوم القرآن خمسون علمًا، وأربعمائة علم، وسبعة آلاف علم، وسبعون ألف علم، على عدد كلم القرآن مضروبة فى أربعة، إذ لكل كلمة ظهر وبطن، وحد ومطلع. وهذا مطلق دون اعتبار التركيب وما بينها من روابط، وهذا ما لا يُحْصَى وما لا يعمله إلا الله ". وأخيرًا عقَّب السيوطى على هذه النقول وغيرها فقال: " وأنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شىء، أما أنواعه فليس منها باب ولا مسألة هى أصلاً إلا وفى القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات وملكوت السموات والأرض وما فى الأفق الأعلى وما تحت الثرى و... و... إلى غير ذلك مما يحتاج شرحه إلى مجلدات ". ومن هذا يتبين لك كيف ظهرت آثار الثقافات العلمية للمسلمين فى تفسير القرآن الكريم، وكيف حاول هؤلاء العلماء المتقدمون أن يجعلوا القرآن منبع العلوم كلها: ما جَدَّ وما يَجِدّ إلى يوم القيامة. ولو أنَّا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم لوجدنا أن هذه النزعة، نزعة التفسير العلمى، تمتد من عهد النهضة العلمية العباسية إلى يومنا هذا، ولوجدنا أنها كانت فى أول الأمر

عبارة عن محاولات يُقْصَد منها التوفيق بين القرآن وما جَدَّ من العلوم، ثم وُجِدت الفكرة مركَّزة وصريحة على لسان الغزالى وابن العربى والمرسى والسيوطى، ولوجدنا أيضًا أن هذه الفكرة قد طُبِّقت علميا وظهرت فى مثل محاولات الفخر الرازى ضمن تفسيره للقرآن. ثم وُجِدت بعد ذلك كتب مستقلة فى استخراج العلوم من القرآن وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم. وراجت هذه الفكرة فى العصر المتأخر رواجًا كبيرًا بين جماعة من أهل العلم، ونتج عن ذلك مؤلفات كثيرة تعالج هذا الموضوع، كما أُلِّفت بعض التفاسير التى تسير على ضوء هذه الفكرة ".

ومن الضفة الأخرى يذكر الدكتور الذهبى الإمام الشاطبى، الذى كان يعارض بمنتهى القوة أى اتجاه لتفسير القرآن فى ضوء المعارف العلمية التى لم يكن العرب، وهم الذين نزل عليهم القرآن واتجه بخطابه إليهم، يعرفون عنها شيئا: " ويظهر لنا على حسب ما قرأنا أن زعيم المعارضة لهذه الفكرة فى العصور المتقدمة هو الفقيه الأصولى أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبى الأندلسى المتوفَّى سنة ٧٩٠ هـ، وذلك أنَّا نجده فى كتابه: " الموافقات " يعقد بحثًا خاصًّا لمقاصد الشارع، وينوِّع هذه المقاصد إلى أنواعٍ تولَّى شرحها وبيانها. والذى يهمنا هنا النوع الثانى منها، وهو " بيان قصد الشارع فى وضع الشريعة للأفهام ". وفى المسألة الثالثة من مسائل هذا النوع نجده يقرر أن " هذه الشريعة المباركة أُمِّية، لأن أهلها كذلك، فهو أجرى على اعتبار المصالح "، ثم دلَّل على ذلك بأُمور ثلاثة لا نطيل بذكرها، ثم عقَّب بفصلٍ ذكر فيه: " إن العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس، وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق،

واتصاف بمحاسن الشيم، فصححت الشريعة منها ما هو صحيح وزادت عليه، وأبطلت ما هو باطل، وبيَّنت منافع ما ينفع من ذلك، ومضارّ ما يضر منه "، ثم ذكر من العلوم الصحيحة التى كان للعرب اعتناء بها: علم النجوم وما يختص به من الاهتداء فى البر والبحر، واختلاف الأزمان باختلاف سيرها، وما يتعلق بهذا المعنى. ثم قال: " وهو معنى مقرر فى أثناء القرآن فى مواضع كثيرة كقوله تعالى: {وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ} [الأنعام: ٩٧]، وقوله: {وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} [النحل: ١٦]، وقوله: {وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾} [يس: ٣٩ - ٤٠]، وقوله: {هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ} [يونس: ٥]، وقوله: {وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً} [الإسراء: ١٢] الآية، وقوله: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ} [الملك: ٥]، وقوله: {يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ} [البقرة: ١٨٩]... وما أشبه ذلك من الآيات. وذكَر علم الأنواء وأوقات نزول الأمطار وإنشاء السحاب وهبوب الرياح المثيرة لها، وعَرَض لما ورد فى ذلك من القرآن، مثل قوله تعالى: {هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ} [الرعد: ١٢ - ١٣] الآية، وقوله: {أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾} [الواقعة: ٦٨ - ٦٩]، وقوله: {وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} [فاطر: ٩]... وغير ذلك من الآيات. وذكر علم

التاريخ وأخبار الأُمم الماضية، وفى القرآن من ذلك ما هو كثير... قال تعالى: { ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ } [آل عمران: ٤٤] الآية، وقال تعالى: { تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا } [هود: ٤٩]. وذكر علم الطب، وبيَّن أنه كان فى العرب منه شىء مبنى على تجارب الأُمِّيين لا على قواعد الأقدمين. قال: " وعلى ذلك المساق جاء فى الشريعة لكن على وجه جامع شاف قليل يطلع منه على كثير، فقال تعالى: { وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ } [الأعراف: ٣١]. وذكر التفنن فى علم فنون البلاغة والخوض فى وجوه الفصاحة والتصرف فى أساليب الكلام. قال: " وهو أعظم منتحلاتهم، فجاءهم بما أعجزهم من القرآن. قال تعالى: { قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ } [الإسراء: ٨٨]. وذكر ضرب الأمثال، واستشهد بقوله تعالى: { وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ } [الروم: ٥٨]. وذكر من العلوم التى عُنِىَ بها العرب، وأكثرها باطل أو جميعها: علم العيافة والزجر والكهانة وخط الرمل والضرب بالحصى والطِّيَرة، قال: " فأبطلت الشريعةُ من ذلك الباطلَ ونهت عنه، كالكهانة والزجر وخط الرمل، وأقرت الفأل لا من جهة تَطلُّب الغيب، فإن الكهانة والزجر كذلك. وأكثر هذه الأمور تَخرُّصٌ على علم الغيب من غير دليل، فجاء النبى ﷺ بجهة من تعرف علم الغيب مما هو محض، وهو الوحى والإلهام، وبقى للناس من ذلك بعد موته عليه السلام جزء من النبوة، وهو الرؤيا الصالحة، وأنموذج من غيره لبعض الخاصة، وهو الإلهام والفراسة ". ثم بعد هذا البيان الذى أوضح فيه

الشاطبى أن الشريعة، فى تصحيح ما صححت وإبطال ما أبطلت، قد عرضت من ذلك إلى ما تعرفه العرب من العلوم ولم تخرج عما ألفوه، نراه يزيد هذا البيان إسهابًا وإيضاحًا ويتوجه باللَّوم إلى مَن أضافوا للقرآن كل علوم الأوَّلين والآخرين، مفندًا هذا الزعم الذى اعتقد أن قائليه قد تجاوزوا به الحد فى دعواهم على القرآن، وذلك حيث يقول فى المسألة الرابعة من مسائل النوع الثانى من المقاصد، أعنى مقاصد وضع الشريعة للإفهام: " ما تقرر من أُمِّية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها، وهم العرب، ينبنى عليه قواعد منها أن كثيرًا من الناس تجاوزوا فى الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يُذْكَر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبعيات والتعاليم كالهندسة وغيرها من الرياضيات والمنطق وعلم الحروف وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها. وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح ". ثم يصحح الشاطبى رأيه هذا ويحتج له بما عُرِف عن السَلَف من نظرهم فى القرآن فيقول: " إن السَلَف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أُودِع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم فى شىء من هذا المدَّعَى سوى ما تقدم، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الآخرة وما يلى ذلك. ولو كان لهم فى ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة. إلا أن ذلك لم يكن، فدَلَّ على أنه غير موجود عندهم، وذلك دليل على أن القرآن لم يُقْصَد فيه تقرير لشىء مما زعموا. نعم تضمن علومًا من جنس علوم العرب أو ما ينبنى على معهودها مما يتعجب منه أُولو الألباب ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بأعلامه والاستنارة بنوره. وأما

أن فيه ما ليس من ذلك فلا ". ثم أخذ الشاطبى بعد هذا فى ذكر ما استند إليه أرباب التفسير العلمى من الأدلة فقال: " وربما استدلوا على دعواهم بقوله تعالى:{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ } [النحل: ٨٩]، وقوله:{مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ} [الأنعام: ٣٨]. ونحو ذلك، وبفواتح السور، وهى مما لم يُعْهَد عند العرب، وبما نُقِل عن الناس فيها. وربما حُكِىَ من ذلك عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وغيره أشياء ".

ثم أخذ الشاطبى رحمه الله يفند هذه الأدلة فقال: " فأما الآيات فالمراد بها عند المفسِّرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد، أو المراد بالكتاب فى قوله:

" مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَابِ مِن شَيْءٍ " اللَّوح المحفوظ، ولم يذكروا فيها ما يقتضى تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية. وأما فواتح السور فقد تكلم الناس فيها بما يقتضى أن للعرب بها عهدًا، كعدد الجُمَّل الذى تَعرَّفوه من أهل الكتاب حسبما ذكره أصحاب السير، أو هى من المتشابهات التى لا يعلم تأويلها إلى الله تعالى، وغير ذلك. وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون، ولم يَدَّعِه أحد ممن تقدم، فلا دليل فيها على ما ادَّعَوْا.، وما يُنْقَل عن علىّ أو غيره فى هذا لا يثبت. فليس بجائز أن يُضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن يُنْكَر منه ما يقتضيه، ويجب الاقتصار فى الاستعانة على فهمه على كل ما يُضاف علمه إلى العرب خاصة، فبه يُوصَل إلى علم ما أُودِع من الأحكام الشرعية. فمَن طلبه بغير ما هو أداة له ضَلَّ عن فهمه، وتَقوَّل على الله ورسوله فيه، والله أعلم، وبه التوفيق ". هذه هى الخلاصة الشاملة لمقالة الشاطبى فى هذا الموضوع، وذلك هو

رأيه فى التفسير العلمى الذى شغف به بعض العلماء المتقدمين والمتأخرين. وأحسب أنى، وقد وضعت بين يدى القارىء مقالة كل فريق وما يستند إليه من أدلة، قد أَنَرْتُ له الطريق وأوضحتُ له السبيل ليختار لنفسه ما يحلو بعد أن يحكم على أحدهما بأنه خيرٌ مقالةً وأحسنُ دليلاً ".

ثم يعلن الدكتور الذهبى رأيه فى هذه القضية الجدلية قائلا: " أما أنا فاعتقادى أن الحق مع الشاطبى رحمه الله، لأن الأدلة التى ساقها لتصحيح مُدَّعاه أدلة قوية لا يعتريها الضعف ولا يتطرق إليها الخلل، ولأن ما أجاب به على أدلة مخالفيه أجوبة سديدة دامغة لا تثبت أمامها حججهم، ولا يبقى معها مُدَّعاهم. وهناك أُمور أُخرى يتقوَّى بها اعتقادنا أن الحق فى جانب الشاطبى ومَن لَفَّ لفَّه. فمن ذلك ما يأتى: أولا الناحية اللُّغوية. وذلك أن الألفاظ اللُّغوية لم تقف عند معنى واحد من لدن استعمالها إلى اليوم، بل تدرجت حياة الألفاظ وتدرجت دلالاتها، فكان لكثير من الألفاظ دلالات مختلفة. ونحن، وإن كنا لا نعرف شيئًا عن تحديد هذا التدرج وتاريخ ظهور المعانى المختلفة للكلمة الواحدة، نستطيع أن نقطع بأن بعض المعانى للكلمة الواحدة حادث باصطلاح أرباب العلوم والفنون: فهناك معان لُغَوِية، وهناك معان شرعية، وهناك معان عُرْفية، وهذه المعانى كلها توقَّع بلفظ واحد بعضها عرفته العرب وقت نزول القرآن، وبعضها لا علم للعرب به وقت نزول القرآن نظرًا لحدوثه وطروئه على اللَّفظ، فهل يُعْقَل بعد ذلك أن نتوسع هذا التوسع العجيب فى فهم ألفاظ القرآن ونجعلها تدل على معان جدَّت باصطلاح حادث ولم تُعرف للعرب الذين نزل القرآن عليهم؟ وهل يعقل أن الله تعالى إنما أراد بهذه الألفاظ

القرآنية هذه المعانى التى حدثت بعد نزول القرآن بأجيال، فى الوقت الذى نزلت فيه هذه الألفاظ من عند الله، وتُلِيَتْ أول ما تُلِيَتْ على من كان حول النبى ﷺ؟ أعتقد أن هذا أمر لا يعقله إلا مَن سَفِهَ نَفْسَه، وأنكر عقله.

ثانيًا الناحية البلاغية. عُرِّفت البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومعلوم أن القرآن فى أعلى درجات البلاغة. فإذا نحن ذهبنا مذهب أرباب التفسير العلمى وقلنا بأن القرآن متضمن لكل العلوم، وألفاظه متحملة لهذه المعانى المستحدَثة، لأوقعْنا أنفسنا فى ورطة لا خلاص لنا منها إلا بما يخدش بلاغة القرآن أو يذهب بفطانة العرب. وذلك لأن مَنْ خوطبوا بالقرآن فى وقت نزوله إنْ كانوا يجهلون هذه المعانى وكان الله يريدها من خطابه إياهم لزم على ذلك أن يكون القرآن غير بليغ لأنه لم يراع حال المخاطب، وهذا سلب لأهم خصائص القرآن الكريم. وإن كانوا يعرفون هذه المعانى فلِمَ لَمْ تظهر نهضة العرب العلمية من لدن نزول القرآن الذى حوى علوم الأوَّلين والآخرين؟ ولِمَ لَمْ تقم نهضتهم على هذه الآيات الشارحة لمختلف العلوم وسائر الفنون؟ وهذا أيضًا سلب لأهم خصائص العرب ومميزاتهم.

ثالثًا الناحية الاعتقادية. القرآن الكريم باقٍ ما تعاقب المَلَوَان، ونظامه نافع لكل عصر وزمان، فهو يتحدث إلى عقول الناس جميعًا من لدن نزوله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو يساير حياتهم فى كل ما يمرون به من مراحل الزمن. وهذا كله بحكم كونه كتاب الشريعة العامة الشاملة، وقانون الدين الذى جعله الله خاتم شرائع السموات إلى أهل الأرض. هذا ما يجب على كل مسلم أن يعتقده ويدين به حتى يَسْلَم له دينه

ولا يرتاب فيه. فإذا نحن ذهبنا مذهب مَن يُحمِّل القرآن كل شيء وجعلناه مصدرًا لجوامع الطب وضوابط الفلك ونظريات الهندسة وقوانين الكيمياء وما إلى ذلك من العلوم المختلفة لكُنَّا بذلك قد أوقعْنا الشك فى عقائد المسلمين نحو القرآن الكريم. وذلك لأن قواعد العلوم وما تقوم عليه من نظريات لا قرار لها ولا بقاء، فرُبَّ نظرية علمية قال بها عالِمٌ اليوم ثم رجع عنها بعد زمن قليل أو كثير لأنه ظهر له خطؤها. وأمام سمعنا وبصرنا من المثل ما يشهد بأن كثيرًا من جوامع العلم لا يضبطها اليوم أحد إلا تغير ضبطه لها بعد ذلك. وكم بين نظريات العلم قديمة وحديثة من تنافٍ وتضادٍّ، فهل يعقل أن يكون القرآن محتملاً لجميع هذه النظريات والقواعد العلمية على ما بينها من التنافى والتضاد؟ وإذا كان هذا معقولاً، فهل يعقل أن يُصدِّق مسلم بالقرآن بعد هذا ويكون على يقين بأنه كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

الحق أن القرآن لا يُعْنَى بهذا اللَّون من حياة الناس ولا يتعهده بالشرح ولا يتولاه بالبيان حتى يكون مصدرهم الذى يرجعون إليه فى تعريف حياتهم العلمية الدنيوية. ويبدو لنا أن أنصار هذه الفكرة، فكرة التفسير العلمى، لم يقولوا بها ولم يعملوا على تأييدها إلا بعد أن نظروا إليها كوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم وبيان صلاحيته للحياة وتمشّيه معها على اختلاف أحوالها وتطور أزمانها. ولكنْ " ما هكذا يا سعد تُورَد الإبل "، فإن إعجاز القرآن غنىّ عن أن يُسْلَك فى بيانه هذا المسلك المتكلف الذى قد يَذْهَب بالإعجاز. وهناك من ألوان الإعجاز غير هذا ما يشهد للقرآن بأنه كتاب الله المنزَّل على محمد ﷺ. وإذا كان أرباب هذا

المسلك فى التفسير يستندون إلى ما تناولته بعض آيات القرآن من حقائق الكون ومشاهده ودعوة الله لهم بالنظر فى كتاب الكون وآياته التى بثَّها فى الآفاق وفى أنفسهم، إذا كانوا يستندون إلى مثل هذا فى دعواهم أن القرآن قد جمع علوم الأوَّلين والآخرين، فهم مخطئون ولا شك. وذلك لأن تناول القرآن لحقائق الكون ومشاهده ودعوته إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض وفى أنفسهم لا يُراد منه إلا رياضة وجدانات الناس وتوجيه عامتهم وخاصتهم إلى مكان العظة والعبرة ولفتهم إلى آيات قدرة الله ودلائل وحدانيته من جهة ما لهذه الآيات والمشاهد من روعة فى النفس وجلال فى القلب لا من جهة ما لها من دقائق النظريات وضوابط القوانين، فليس القرآن كتاب فلسفة أو طب أو هندسة. وليعلم أصحاب هذه الفكرة أن القرآن غنىٌّ عن أن يعتز بمثل هذا التكلف الذى يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنسانى الاجتماعى فى إصلاح الحياة ورياضة النفس والرجوع بها إلى الله تعالى. وليعلم أصحاب هذه الفكرة أيضًا أن من الخير لهم ولكتابهم أن لا ينحوا بالقرآن هذا المنحى فى تفسيرهم رغبة منهم فى إظهار إعجاز القرآن وصلاحيته للتمشى مع التطور الزمنى، وحسبهم أن لا يكون فى القرآن نص صريح يصادم حقيقة علمية ثابتة، وحسب القرآن أنه يمكن التوفيق بينه وبين ما جَدَّ ويَجِدّ من نظريات وقوانين علمية تقوم على أساس من الحق، وتستند إلى أصل من الصحة".

هذا ما قاله الدكتور الذهبى رحمه الله، ولكن كيف يعرف المسلمون أن القرآن ليس فيه ما يصادم حقيقة من حقائق العلم ما لم يدرسوه جيدا

من هذه الناحية؟ علاوة أن كونه كتاب هداية ليس معناه أن نقصر هذه الهداية على هداية العقيدة والخلق والسلوك فحسب، إذ الهداية أوسع من ذلك وأعم وأشمل: فهناك هداية فكرية، وهداية سياسية، وهداية اجتماعية، وهداية اقتصادية، وهداية ذوقية، وهداية صحية، وهداية إدارية... وهلم جرا. ومن هداية الفكر ما يلفتنا إليه القرآن من ظواهر الكون وحقائق العلم... وهلم جرا. والقرآن مفعم بالآيات التى تدعو إلى تشغيل العقول والنظر فى الآفاق والاستزادة من المعرفة واتباع المنهج العلمى الصحيح فى التفكير والاستدلال، فليس كل كتاب الله إذن مخصصا للهداية العقيدية والأخلاقية والسلوكية دون غيرها من الهدايات. ثم إن فى القرآن آيات كثيرة تتعلق بالمعارف العلمية الطبيعية والرياضية والإنسانية، فماذا نصنع إزاءها؟ وكيف يستطيع المفسر التقليدى الذى ليس له من بضاعة إلا بضاعة اللغة والفقه والبلاغة وما إلى ذلك أن يتناولها تناولا يشفى ويريح العقل المعاصر؟ وما معنى التخصص إذن؟ أم ترى القرآن كتابا ساذجا لا يستحق أن نستعين فى فهمه بألوان العلوم والفنون المختلفة؟ أفلا نخصص إذن لهذا الجانب العلمى فى القرآن بعض جهدنا فى الفهم والتفسير؟ ثم هل يمكن أن تتم هداية المسلم، وهو ضعيف علميا؟ فماذا نصنع بقوله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: ٩].

ونفس الشىء يقال عن العصر الحديث، إذ هناك من يوافق على التفسير العلمى لآيات القرآن، وهناك من يرفض ذلك. وممن رحب بهذا وتحمس له من المصريين فقط عبد الله (باشا) فكرى وزير المعارف فى القرن التاسع عشر، ومصطفى صادق الرافعى، وعبد العزيز (باشا)

إسماعيل ود. توفيق صدقى ود. محمد أحمد الغمراوى والأستاذ حنفى أحمد والأستاذ عبد الرازق نوفل والأستاذ عبد العزيز سيد الأهل والأستاذ على عبد العظيم ود. السيد الجميلى ود. مصطفى محمود ود. محمد أحمد الشهاوى ود. منصور حسب النبى ود. زغلول النجار. ولكل واحد من هؤلاء تقريبا مساهمة فى هذا المجال. وهناك مواقع متعددة خاصة بتفسير الآيات التى تتصل بالعلوم الطبيعية والرياضية والنفسية وما إلى هذا منشورة على المِشْبَاك، وفيها بحوث ودراسات يعمل أصحابها على أن يتناولوا كل شىء من ذلك فى كتاب الله بالبحث والدرس.

وقد أورد د. يوسف القرضاوى فى كتابه: " كيف نتعامل مع القرآن العظيم؟ " بعض الأسماء الرافضة فى عصرنا لهذا اللون من التفسير والحجج التى استندت إليها فى ذلك الرفض. قال: " اشتهر في عصرنا لون جديد من التفسير، أُطْلِق عليه " التفسير العلمي للقرآن "، ويُقْصَد به التفسير الذي تستخدم فيه العلوم الكونية الحديثة: حقائقها ونظرياتها لبيان مراميه وتوضيح معانيه. والذين يُعْنَوْن بهذا اللون من التفسير في الغالب ويتحمسون له هم علماء الكون والطبيعة، وليسوا من علماء الدين والشريعة. وعلماء الدين والشريعة يختلفون فيما بينهم حول جواز هذا اللون من التفسير ومدى شرعيته. وفي الخمسينيات من القرن العشرين ثارت معركة جدلية على صفحات الصحف المصرية بين فريقين من علماء الدين حول هذه القضية، وأحسب أن الخلاف فيها لم يزل إلى يومنا بين منتصر لهذا الرأي ومنتصر لمخالفه. وقبل ذلك وجدنا من كبار العلماء الباحثين المحدثين المؤيدين والمعارضين، وإن كان المعارضون

أكثر وأوفر.

وجدنا من المعارضين الإمام الأكبر محمود شلتوت رحمه الله، الذي أنكر في مقدمة تفسيره على طائفة من المثقفين أخذوا بطرف من العلم الحديث وانتقَوْا أو تلقفوا شيئا من النظريات العلمية والفلسفية وغيرها، وأخذوا يستندون إلى ثقافتهم الحديثة ويفسرون آيات القرآن على مقتضاها. قال الشيخ عن هؤلاء: " نظروا في القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول: {مَّافَرَّطْنَافِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ} [الأنعام: ٣٨]، فتأولوها على نحوٍ زيَّن لهم أن يفتحوا في القرآن فتحًا جديدًا، ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة، وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية، وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن ويرفعون من شأن الإسلام ويدعون له أبلغ دعاية في الأوساط العلمية والثقافية. نظروا في القرآن على هذا الأساس، فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن وأفضى بهم إلى صورة من التفكير لا يريدها القرآن ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزله الله. هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك لأن الله لم يُنْزِل القرآن ليكون كتابًا يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف. وهي خاطئة لأنها تعرّض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير، فقد يصح اليوم في نظر العالم ما يصبح غدًا من الخرافات. فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة لعرّضناه للتقلب معها وتَحَمّل تبعات الخطأ فيها، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفا حرجا في الدفاع عنه. فلندع للقرآن عظمته وجلالته، ولنحفظ عليه قدسيته

ومهابته، ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر ليزداد الناس إيمانا مع إيمانهم. وحسبنا أن القرآن لم يصادم الفطرة، ولم يصادم ولن يصادم حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول... ".

ووجدنا من المعارضين الأستاذ الشيخ أمين الخولي في بحثه المركّز: " التفسير: معالم حياته، منهجه اليوم ". وقد نقل فيه رأي الشاطبي واعتراضه على الذين أرادوا أن يخرجوا بالقرآن عن نهجه في مخاطبة العرب بما يفهمون وفي إطار ما يعهدون من علوم ومعارف، وردّ على الذين زعموا أن في القرآن علوم الأولين والآخرين: دينية ودنيوية، شرعية وعقلية. وهو رأي الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر الأسبق، قاله في تقديمه لكتاب عبد العزيز (باشا) إسماعيل: " الإسلام والطب الحديث ". وهو رأي د. عبد الحليم محمود والشيخ عبد الله المشد والشيخ أبو بكر ذكري، أعلنوه في مقدمة تفسيرهم الموجز للقرآن، والذي كان ينشر في مجلة " نور الإسلام " لسان علماء الوعظ والإرشاد في الأزهر.

وينحو صاحب " الظلال " سيد قطب، رحمه الله، هذا المنحى في تفسيره لآية " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ "، إذ يقول بقلمه البليغ: وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه أن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه، وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه! إن القرآن كتاب كامل في موضوعه، وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها لأنه

هو الإنسان ذاته الذي يكتشف هذه المعلومات وينتفع بها، والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الإنسان. والقرآن يعالج بناء هذا الإنسان، بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره، كما يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح بأن يحسن استخدام هذه الطاقات المذخورة فيه. وبعد أن يوجد الإنسان السليم التصور والتفكير والشعور، ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط، يتركه القرآن يبحث ويجرب ويخطئ ويصيب في مجال العلم والبحث والتجريب، وقد ضمن له موازين التصور والتدبر والتفكير الصحيح. كذلك لا يجوز أن نعلق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن أحيانا عن الكون في طريقه إنشاء التصور الصحيح لطبيعة الوجود وارتباطه بخالقه، وطبيعة التناسق بين أجزائه، لا يجوز أن نعلق هذه الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن بفروض العقل البشري ونظرياته، ولا حتى بما نسميه: " حقائق علمية " مما ينتهي إليه بطريق التجربة القاطعة في نظره.

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة. أما ما يصل إليه البحث الإنساني، أيًّا كانت الأدوات المتاحة له، فهي حقائق غير نهائية ولا قاطعة، وهي مقيدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب وأدواتها. فمن الخطأ المنهجي بحكم المنهج العلمي الإنساني ذاته أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية، وهي كل ما يصل إليه العلم البشري. هذا بالقياس إلى الحقائق العلمية، والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض التي تسمى: " علمية ". ومن هذه النظريات والفروض كل النظريات الفلكية، وكل النظريات الخاصة بنشأة الإنسان وأطواره، وكل

النظريات الخاصة بنفس الإنسان وسلوكه، وكل النظريات الخاصة بنشأة المجتمعات وأطوارها. فهذه كلها ليست " حقائق علمية " حتى بالقياس الإنساني، وإنما هي نظريات وفروض كل قيمتها أنها تصلح لتفسير أكبر قدر من الظواهر الكونية أو الحيوية أو النفسية أو الاجتماعية، وإلى أن يظهر فرض آخر يفسر قدرا أكبر من الظواهر، أو يفسر تلك الظواهر تفسيرا أدق! ومن ثم فهي قابلة للتغيير والتعديل والنقص والإضافة، بل قابلة لأن تنقلب رأسا على عقب بظهور أداة كشف جديدة أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة. وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات متجددة متغيرة، أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا، تحتوي أولاً على خطإ منهجي أساسي. كما أنها تنطوي على معانٍ ثلاثة كلها لا يليق بالقرآن الكريم:

المعنى الأول الهزيمة الداخلية التي تخيِّل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن، والقرآن تابع. ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم أو الاستدلال له من العلم، على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه، ونهائي في حقائقه. والعلم لا يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس، وكل ما يصل إليه غير نهائي ولا مطلق لأنه مقيَّد بوسع الإنسان وعقله وأدواته، وكلها ليس من طبيعتها أن تعطي حقيقة واحدة نهائية مطلقة. والمعنى الثاني سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته، وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق، بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية، مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله، بل يصادقه ويعرف بعض أسراره ويستخدم بعض

نواميسه في خلافته، نواميسه التي تتكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق، وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة! والمعنى الثالث هو التأويل المستمر، مع التمحل والتكلف، لنصوص القرآن كي نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر. وكل يوم يوجد جديد، وكل أولئك لا يتفق وجلال القرآن، كما أنه يحتوي على خطإ منهجي، كما أسلفنا ".

أما كاتب هذه السطور فليس مع الرافضين للتفسير العلمى رغم شدة احترامه لهم وإكباره لما كتبوه. وما دام التفسير العلمى لا يصادم الآية فى لغتها ولا يلويها عن سياقها أو عن معناها الذى يحكم به العقل السليم فأهلا به وسهلا ومرحبا. أما القول بأن القرآن إنما نزل يخاطب العرب المعاصرين للرسول وحدهم فهذا غير صحيح، إذ هو يخاطب من خلالهم البشرية كلها منذ عصرهم إلى أبد الآبدين. وما دام العلم يتقدم كل يوم ويقفز بخطاه الجبارة فلا بد أن نستعين به فى فهم هذا النص الإلهى المعجز. والله سبحانه وتعالى ليس عربيا ولا هو ينتمى إلى عصر المبعث، بل هو سبحانه فوق الزمان والمكان والأجناس والأعراق والثقافات، وكلامه أزلى أبدى. والذى أومن به أن النص القرآنى قد صيغ صياغة تسمح بفهمه فهما متجددا وسليما فى كل عصر. ونحن نعرف أن للحقيقة وجوها مختلفة، وإذا لم يكن فى كلام الله تلك الشمولية ففى أى كلام يا ترى تكون؟ ولقد سبق أن ضربت أمثلة على ضرورة الاستعانة بالعلوم الطبيعية والفلسفية والرياضية فى فهم نصوص قرآنية لا يمكن فهمها من قِبَل العقل الحديث بدونها. كما أن المُحْدَثين والمعاصرين قد

استحدثوا من الدراسات القرآنية ما لم يكن يخطر على بال أحد، فكيف يقال إن إحساسهم البلاغى بجمال العبارة القرآنية أضعف من إحساس عرب المبعث؟ وبالنسبة لى لن يحجزنى أنى مؤلف كتاب " القرآن والحديث - مقارنة أسلوبية " عن التنبيه إلى ما فيه من لون جديد من الدراسات القرآنية فأسكت عن القول بأن هذه أول مرة يفصَّل القول أسلوبيا وإحصائيا وتحليليا فى المقارنة بين لغة القرآن ولغة الرسول عليه السلام. ولا ريب فى أن هذا الإنجاز ما كان ليتم فى العصور السابقة لأنه ابن عصره. كما استطعت أيضا فى كتبى عن سور " المائدة " و " يوسف " و " الرعد " و " طه " و " النجم " و " الرحمن " رَصْد عشرات الفروق الأسلوبية بين النصوص المكية والمدنية فى كتاب الله مما يعد جديدا تمام الجدة، إذ لم يتوصل القدماء طوال الأربعة عشر قرنا الماضية إلا إلى بضعة فروق قليلة من هذا اللون يجدها القارئ مكررة فى كتب علوم القرآن هنا وهناك دون زيادة أو نقصان. ومن المؤكد أن هناك دراسات أخرى ظهرت فى عصرنا هذا، فكيف يهوَّن من شأن هذا العصر والجهود التى تُبْذَل فيه لخدمة كتاب الله بحجة أن القدماء كانوا أفصح منا وأبلغ، وأقدر على فهم القرآن من كل نواحيه فهما لا يمكننا نحن المُحْدَثين بلوغ شىء منه؟

أما اعتراضات سيد قطب رحمه الله فالرد عليها كالآتى: ليس من الهزيمة الداخلية فى شىء أن أستعين بالعلوم الطبيعية، وإلا كانت الاستعانة بأى علم آخر حتى لو كان علم النحو أو البلاغة مثلا هزيمة نفسية أيضا، إذ كلها علوم بشرية، وليس ثم فرق بين أى منها والآخر.

ونحن لا نجعل العلوم الطبيعية هى الأصل، بل القرآن، الذى شأنُه شأنُ أى نص آخر يحتاج فى فهمه وتذوقه إلى وسائل وأدوات، ومنها العلوم الطبيعية والرياضية. وقد قلنا إنه لا بد أن يلح المفسر العلمى على أن ما يقوله إنْ هو إلا اجتهادات منه قد تصيب وقد تخطئ، وأن النص القرآنى شىء مختلف تماما عن هذا الذى يقول. ثم لقد قلنا أيضا إنه لا يصح تحميل النص القرآنى ما لا يحتمل أو تقويله ما لا يقول. كما قلنا إن كلام المفسرين الذين لا يستعينون بتلك العلوم المبغوضة عند البعض كثيرا ما يخطئ، فهل يكون هذا مسوغا لرفض الاستعانة بالعلوم التقليدية التى يستعين بها أولئك المفسرون من نحو وبلاغة وحديث وما إلى ذلك؟ ثم ماذا نفعل فى الآيات التى استعنتُ فى هذا الكتاب بكلام المتخصصين فى العلوم الطبيعية فى فهمها، وهى لا تُفْهَم فى عصرنا الفهم المريح للذهن والقلب إلا بالاستعانة بتلك المباحث؟ هذا هو السؤال. ثم إن التفسير التقليدى كثيرا ما يعاد فيه النظر، ويقول اللاحق كلاما ينقض كلام السابق. أى أن الاستعانة بالعلوم الطبيعية ليست هى وحدها المعرَّضة لهذا الأمر. وأود هنا أن أقول كلمة جد مهمة، وهى أن العلم الطبيعى، مثل أى علم آخر، إنما هو نعمة من الله، فكيف يمكن أن نقاطع تلك النعمة وكأنها مستوحاة من الشيطان؟ المطلوب منا أن نسدد ونقارب وأن نجتهد بأقصى ما نَقْدِر، ولو نجحنا فخير وبركة، ولنا من الله الكريم الرحيم درجتان، وإذا كانت الأخرى فدرجة واحدة، إذ من المعروف طبقا لحديث سيد المرسلين أنه لا عقاب فى الإسلام على الاجتهاد حتى لو أخطأ صاحبه ما دام قد استفرغ الوسع.

على أن ما نقله د. القرضاوى من كلام سيد قطب ليس هو كل كلام الرجل فى هذا السبيل، إذ عَقَّب رحمه الله على هذا الكلام بما يلى: " ولكن هذا لا يعني ألا ننتفع بما يكشفه العلم من نظريات ومن حقائق عن الكون والحياة والإنسان في فهم القرآن. كلا! إن هذا ليس هو الذي عَنَيْنا بذلك البيان. ولقد قال الله سبحانه: { سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ } [فصلت: ٥٣]. ومن مقتضى هذه الإشارة أن نظل نتدبر كل ما يكشفه العلم في الآفاق وفي الأنفس من آيات الله، وأن نوسّع بما يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصورنا. فكيف، ودون أن نعلق النصوص القرآنية النهائية المطلقة بمدلولات ليست نهائية ولا مطلقة؟ هنا ينفع المثال: يقول القرآن الكريم مثلا: {وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا} [الفرقان: ٢]. ثم تكشف الملاحظات العلمية أن هناك موافقات دقيقة وتناسقات ملحوظة بدقة في هذا الكون: الأرض بهيئتها هذه وببعد الشمس عنها هذا البعد، وبعد القمر عنها هذا البعد، وحجم الشمس والقمر بالنسبة لحجمها، وبسرعة حركتها هذه، وبميل محورها هذا، وبتكوين سطحها هذا، وبآلاف من الخصائص، هي التي تصلح للحياة وتُوَائِمُها. فليس شيء من هذا كله فلتة عارضة ولا مصادفة غير مقصودة. هذه الملاحظات تفيدنا في توسيع مدلول {وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا} وتعميقه في تصورنا. فلا بأس من تتبع مثل هذه الملاحظات لتوسيع هذا المدلول وتعميقه... وهكذا.

هذا جائز ومطلوب، ولكن الذي لا يجوز ولا يصح علميا هذه الأمثلة الأخرى: يقول القرآن الكريم: " خَلَق الإنسانَ من سلالة من طين "، ثم توجد نظرية في النشوء والارتقاء لوالاس ودارْوِن تفترض أن الحياة

بدأت خلية واحدة، وأن هذه الخلية نشأت في الماء، وأنها تطورت حتى انتهت إلى خلق الإنسان. فنحمل نحن هذا النص القرآني ونلهث وراء النظرية لنقول: هذا هو الذي عناه القرآن! لا. إن هذه النظرية أولا ليست نهائية، فقد دخل عليها من التعديل في أقل من قرن من الزمان ما يكاد يغيرها نهائيا. وقد ظهر فيها من النقص المبني على معلومات ناقصة عن وحدات الوراثة التي تحتفظ لكل نوع بخصائصه ولا تسمح بانتقال نوع إلى نوع آخر ما يكاد يبطلها. وهي معرضة غدا للنقض والبطلان، بينما الحقيقة القرآنية نهائية، وليس من الضروري أن يكون هذا معناها، فهي تثبت فقط أصل نشأة الإنسان ولا تذكر تفصيلات هذه النشأة. وهي نهائية في النقطة التي تستهدفها، وهي أصل النشأة الإنسانية وكفى، ولا زيادة. ويقول القرآن الكريم: {وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا} [يس: ٣٨]، فيثبت حقيقة نهائية عن الشمس، وهي أنها تجري. ويقول العلم إن الشمس تجري بالنسبة لما حولها من النجوم بسرعة قدرت بنحو ١٢ ميلا في الثانية، ولكنها في دورانها مع المجرة التي هي واحدة من نجومها تجري جميعا بسرعة ١٧٠ ميلا في الثانية. ولكن هذه الملاحظات الفلكية ليست هي عين مدلول الآية القرآنية. إن هذه تعطينا حقيقة نسبية غير نهائية قابلة للتعديل أو البطلان. أما الآية القرآنية فتعطينا حقيقة نهائية في أن الشمس تجري، وكفى. فلا نعلق هذه بتلك أبدا. ويقول القرآن الكريم: {أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا} [الأنبياء: ٣٠]، ثم تظهر نظرية تقول إن الأرض كانت قطعة من الشمس فانفصلت عنها، فنحمل النص القرآني ونلهث لندرك هذه النظرية العلمية ونقول: هذا ما تعنيه

الآية القرآنية! لا. ليس هذا هو الذي تعنيه! فهذه نظرية ليست نهائية، وهناك عدة نظريات عن نشأة الأرض في مثل مستواها من ناحية الإثبات العلمي! أما الحقيقة القرآنية فهي نهائية ومطلقة، وهي تحدد فقط أن الأرض فُصِلَتْ عن السماء. كيف؟ ما هي السماء التي فُصِلَتْ عنها؟ هذا ما لا تتعرض له الآية، ومن ثم لا يجوز أن يقال عن أي فرض من الفروض العلمية في هذا الموضوع إنه المدلول النهائي المطابق للآية! وحسبنا هذا الاستطراد بهذه المناسبة، فقد أردنا به إيضاح المنهج الصحيح في الانتفاع بالكشوف العلمية في توسيع مدلول الآيات القرآنية وتعميقها دون تعليقها بنظرية خاصة أو بحقيقة علمية خاصة تعليق تطابق وتصديق. وفرق بين هذا وذاك ". ولو تأملنا هذه السطور لرأيناه، رحمه الله، لا ينكر الاستفادة من التقدم العلمى واكتشافاته فى فهم القرآن على طول الخط، بل ينصب إنكاره فقط على المغالاة فى ذلك والجرى وراء كل ساقطة ولاقطة مما يقوله العلماء دون أن يكون هناك سند متين لهذا الذى يقولون. وهو ما لا يختلف عما اخترناه.

ولكى يطمئن القارئ أن ما أوردناه الآن هو الذى يمثل موقف سيد قطب نسوق إليه أيضا من تفسيره المسمَّى: " فى ظلال القرآن " هذه الفقرات التى تبين أن ما نقله عنه الدكتور القرضاوى لا يصور رأيه من كل جوانبه.

يقول رحمه الله عند الكلام عن قوله تعالى: { أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ } [الأنبياء: ٣٠ - ٣١] : " وتقريره

(أى القرآن) أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففُتِقَتَا مسألة جديرة بالتأمل كلما تقدمت النظريات الفلكية في محاولة تفسير الظواهر الكونية فحامت حول هذه الحقيقة التي أوردها القرآن الكريم منذ أكثر من ثلاثمائة وألف عام. فالنظرية القائمة اليوم هي أن المجموعات النجمية، كالمجموعة الشمسية المؤلفة من الشمس وتوابعها ومنها الأرض والقمر، كانت سَدِيمًا، ثم انفصلت وأخذت أشكالها الكروية، وأن الأرض كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها وبردت. ولكن هذه ليست سوى نظرية فلكية تقوم اليوم، وقد تُنْقَض غدا، وتقوم نظرية أخرى تصلح لتفسير الظواهر الكونية بفرض آخر يتحول إلى نظرية. ونحن أصحاب هذه العقيدة لا نحاول أن نحمل النص القرآني المستيقن على نظرية غير مستيقنة تُقْبَل اليوم وتُرْفَض غدا. لذلك لا نحاول في هذه الظلال أن نوفق بين النصوص القرآنية والنظريات التي تسمى علمية. وهي شيء آخر غير الحقائق العلمية الثابتة القابلة للتجربة كتمدد المعادن بالحرارة وتحول الماء بخارا وتجمده بالبرودة... إلى آخر هذا النوع من الحقائق العلمية. وهي شيء آخر غير النظريات العلمية كما بينا من قبل في الظلال. إن القرآن ليس كتاب نظريات علمية ولم يجيء ليكون علما تجريبيا كذلك. إنما هو منهج للحياة كلها، منهج لتقويم العقل ليعمل وينطلق في حدوده، ولتقويم المجتمع ليسمح للعقل بالعمل والانطلاق دون أن يدخل في جزئيات وتفصيليات علمية بحتة، فهذا متروك للعقل بعد تقويمه وإطلاق سراحه.

وقد يشير القرآن أحيانا إلى حقائق كونية كهذه الحقيقة التي يقررها

هنا: {أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا} ". ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرد ورودها في القرآن، وإن كنا لا نعرف منه كيف كان فتق السماوات والأرض، أو فتق السماوات عن الأرض. ونتقبل النظريات الفلكية التي لا تخالف هذه الحقيقة المجملة التي قررها القرآن، ولكننا لا نجري بالنص القرآني وراء أية نظرية فلكية، ولا نطلب تصديقا للقرآن في نظريات البشر. وهو حقيقة مستيقنة! وقصارى ما يقال إن النظرية الفلكية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم الإجمالي لهذا النص القرآني السابق عليها بأجيال! فأما شطر الآية الثاني: {وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ} [الأنبياء: ٣٠] فيقرر كذلك حقيقة خطيرة يعد العلماء كشفها وتقريرها أمرا عظيما، ويمجدون دارون لاهتدائه إليها وتقريره أن الماء هو مهد الحياة الأول. وهي حقيقة تثير الانتباه حقا، وإن كان ورودها في القرآن الكريم لا يثير العجب في نفوسنا، ولا يزيدنا يقينا بصدق هذا القرآن. فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق في كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله. لا من موافقة النظريات أو الكشوف العلمية له. وأقصى ما يقال هنا كذلك إن نظرية النشوء والارتقاء لدارون وجماعته لا تعارض مفهوم النص القرآني في هذه النقطة بالذات.

ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا كان القرآن الكريم يوجه أنظار الكفار إلى عجائب صنع الله في الكون، ويستنكر ألا يؤمنوا بها وهم يرونها مبثوثة في الوجود: أفلا يؤمنون، وكل ما حولهم في الكون يقود إلى الإيمان بالخالق المدبر الحكيم؟ ثم يمضي في عرض مشاهد الكون الهائلة: {وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ} [الأنبياء: ٣١]، فيقرر أن هذه

الجبال الرواسي تحفظ توازن الأرض فلا تميد بهم ولا تضطرب. وحفظ التوازن يتحقق في صور شتى: فقد يكون توازنا بين الضغط الخارجي على الأرض والضغط الداخلي في جوفها، وهو يختلف من بقعة إلى بقعة. وقد يكون بروز الجبال في موضع معادلا لانخفاض الأرض في موضع آخر. وعلى أية حال فهذا النص يثبت أن للجبال علاقة بتوازن الأرض واستقرارها. فلنترك للبحوث العلمية كشف الطريقة التي يتم بها هذا التوازن، فذلك مجالها الأصيل، ولنكتف من النص القرآني الصادق باللمسة الوجدانية والتأمل الموحي، وبتتبع يد القدرة المبدعة المدبرة لهذا الكون الكبير ".

بل إنه، غفر الله له، لدى تفسيره لقوله تعالى من سورة " الأنعام ": {إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾} [الأنعام: ٩٥] يمضي في نقل فقرات كثيرة مما قاله بعض علماء الغرب عن استحالة المصادفة في عملية خلق الكون، وأن وراء هذا الكون إرادة قاصدة وقدرة مطلقة، وأن الأمر ليس عبثا. فما معنى ذلك؟ ولنقرأ: " لقد عجزت كل محاولة لتفسير ظاهرة الحياة، على غير أساس أنها من خلق الله. ومنذ أن شَرَد الناس من الكنيسة في أوربا... وهم يحاولون تفسير نشأة الكون وتفسير نشأة الحياة بدون التجاء إلى الاعتراف بوجود الله، ولكن هذه المحاولات كلها فشلت جميعا، ولم تبق منها في القرن العشرين إلا مماحكات تدل على العناد، ولا تدل على الإخلاص! وأقوال بعض " علمائهم " الذين عجزوا عن تفسير وجود الحياة إلا بالاعتراف بالله تصور حقيقة موقف " علمهم " نفسه من هذه

القضية. ونحن نسوقها لمن لا يزالون عندنا يقتاتون على فتات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من موائد الأوربيين، عازفين عن هذا الدين، لأنه يُثْبِت " الغيب " وهم " علميون! " لا " غيبيون! ". ونختار لهم هؤلاء العلماء من " أمريكا! ".

يقول " فرانك أللن " (ماجستير ودكتوراه من جامعة كورنل وأستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا) في مقال " نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد؟ " من كتاب " الله يتجلى في عصر العلم " (ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان): " فإذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق، فلا بد أن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة. فما هي تلك المصادفة إذن حتى نتدبرها ونرى كيف تخلق الحياة؟ إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيثما انعدم الحكم الصحيح المطلق. وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب، مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم. ولقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدما كبيرا حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التي نقول إنها تحدث بالمصادفة، والتي لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى، مثل قذف الزهر في لعبة النَّرْد. وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة وما يستحيل حدوثه بهذه الطريقة، وأن نحسب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في مدًى معين من الزمان. ولننظر الآن إلى الدور الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة:

إن البروتينات من المركَّبات الأساسية في جميع الخلايا الحية، وهي تتكون من خمسة عناصر هي الكربون والأدروجين والنيتروجين والأكسجين والكبريت. ويبلغ عدد الذرات في الجُزَيْءِ الواحد ٤٠ ٠٠٠ ذرة. ولما كان عدد العناصر الكيموية في الطبيعة ٩٢ عنصرا، موزعة كلها توزيعا عشوائيا، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جُزَيْئًا من جُزَيْئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطا مستمرا لكي تؤلف هذا الجزيء، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد. وقد قام العالم الرياضي السويسري تشارلز يوجين جاي بحساب هذه العوامل جميعا، فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة ١ إلى ١٠× ١٦٠، أي بنسبة ١ إلى رقم عشرة مضروبا في نفسه ١٦٠ مرة، وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات. وينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات. ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدَّرها العالم السويسري بأنها عشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين. إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية، فكيف تتآلف ذرات هذه الجزيئات؟ إنها إذا تآلفت بطريقة أخرى غير التي تتآلف بها تصير غير صالحة للحياة، بل تصير في بعض الأحيان سموما. وقد حسب العالم الإنجليزي ج. ب. سيئر الطرق التي يمكن أن تتآلف بها

الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات، فوجد أن عددها يبلغ الملايين... وعلى ذلك فإنه من المحال عقلا أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئا بروتينيا واحدا. ولكن البروتينات ليست إلا موادَّ كيماويةً عديمةَ الحياة، ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذي لا ندري من كنهه شيئا. إنه العقل اللانهائي، وهو الله وحده الذي استطاع أن يدرك ببالغ حكمته أن مثل هذا الجزيء البروتيني يصلح لأن يكون مستقرا للحياة، فبناه وصوَّره وأغدق عليه سر الحياة ".

ويقول إيرفنج وليام (دكتوراه من جامعة إيوى وإخصائي في وراثة النباتات وأستاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميتشجان) في مقال " المادية وحدها لا تكفي " من الكتاب نفسه: " إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها والتي لا يحصيها عد، وهي التي تتكون منها جميع المواد. كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا، بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها، كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكون الحياة. ولا شك أن النظرية التي تدّعي أن جميع صور الحياة الراقية قد وصلت إلى حالتها الراهنة من الرقي بسبب حدوث بعض الطفرات العشوائية والتجمعات والهجائن، نقول: إن هذه النظرية لا يمكن الأخذ بها إلا عن طريق التسليم، فهي لا تقوم على أساس المنطق والإقناع! ".

ويقول ألبرت ماكومب ونشتر (متخصص في علم الأحياء. دكتوراه من جامعة تكساس. أستاذ علم الأحياء بجامعة بايلور) في مقال " العلوم تدعم إيماني بالله " من الكتاب نفسه: " وقد اشتغلت بدراسة علم الأحياء،

وهو من الميادين العلمية الفسيحة التي تهتم بدراسة الحياة. وليس بين مخلوقات الله أروع من الأحياء التي تسكن هذا الكون. انظر إلى نبات برسيم ضئيل، وقد نما على أحد جوانب الطريق، فهل تستطيع أن تجد له نظيرا في روعته بين جميع ما صنعه الإنسان من تلك العدد والآلات الرائعة؟ إنه آله حية تقوم بصورة دائبة لا تنقطع آناء الليل وأطراف النهار بآلاف من التفاعلات الكيموية والطبيعية. ويتم كل ذلك تحت سيطرة البروتوبلازم، وهو المادة التي تدخل في تركيب جميع الكائنات الحية. فمن أين جاءت هذه الآلة الحية المعقدة؟ إن الله لم يصنعها هكذا وحدها، ولكنه خلق الحياة وجعلها قادرة على صيانة نفسها، وعلى الاستمرار من جيل إلى جيل، مع الاحتفاظ بكل الخواصّ والمميزات التي تعيننا على التمييز بين نبات وآخر. إن دراسة التكاثر في الأحياء تعتبر أروع دراسات علم الأحياء وأكثرها إظهارا لقدرة الله. إن الخلية التناسلية التي ينتج عنها النبات الجديد تبلغ من الصغر درجة كبرى بحيث يصعب مشاهدتها إلا باستخدام المِجْهَر المكبِّر. ومن العجيب أن كل صفة من صفات النبات، كل عِرْق، وكل شُعَيْرة، وكل فرع على ساق، وكل جذر أو ورقة، يتم تكوينها تحت إشراف مهندسين قد بلغوا من دقة الحجم مبلغا كبيرا، فاستطاعوا العيش داخل الخلية التي ينشأ منها النبات، تلك الفئة من المهندسين هي فئة الكروموسومات (ناقلات الوراثة) ". فها هو ذا سيد قطب يستشهد بما يقوله بعض علماء الطبيعة، ومن الغربيين لا من المسلمين، فى موضوع يتصل ببعض الآيات القرآنية، وهو ما يدل على أن الاستشهاد به، غفر الله له، على أنه معادٍ تماما للاستعانة بالعلوم

الطبيعية وأشباهها فى فهم كلام الله هو استشهاد غير كامل، بل يصور جانبا واحدا فقط من جوانب موقفه من تلك القضية.

وكمِثْل الأستاذ سيد قطب نرى الشيخ المراغى، رغم إعلانه كراهيته لجَرّ الآية القرآنية إلى العلوم، أو العلوم إلى الآية، كى يتم تفسيرها تفسيرا علميا يتفق مع نظريات العلم الحديث، وكذلك رغم تكريره هذا الإعلان كقوله مثلا: " وُجِد الخلاف بين المسلمين فى العقائد والأحكام الفقهية، ووُجِد عندهم مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليُرْجَع إليها، وتأويله لبعض النظريات العلمية التى لم يقر قرارها، وذلك خطر عظيم على الكتاب، فإن للفلاسفة أوهاما لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى. والنظريات التى لم تستقرّ لا يصح أن يُرَد إليها كتاب الله " (الشيخ محمد مصطفى المراغى/ الدروس الدينية لسنة ١٣٥٧هـ/ مطبعة الأزهر/ ١٩٣٩م/ ١١)، أقول: رغم هذا وذاك نراه يخالف فى تفسيره ما قاله ويستعين فيه بما قالته العلوم الطبيعية: فمن ذلك قوله فى تفسير الآية رقم ١٠ من سورة لقمان: { خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾} [لقمان: ١٠] : " السموات مجموع ما نراه فى الفضاء فوقنا من سيّارات ونجوم وسدائم، وهى مرتبة بعضها فوق بعض، تطوف دائرة فى الفضاء، كل شىء منها فى مكانه المقدّر له بالناموس الإلهى ونظام الجاذبية، ولا يمكن أن يكون لها عَمَد، والله هو ممسكها ومجريها إلى الأجل المقدَّر لها. فإذا قيل إن نظام الجاذبية، وهو الناموس الإلهى، قائم مقام العَمَد ويُطلق عليه اسم " العَمَد " جاز أن نقول: إن لها عَمَدا

غير منظورة. وإذا لاحظنا أنه لا يوجد شيء مادى تعتمد عليه وجب أن نقول: إنه لا عَمَد لها. وأقدار الأجرام السماوية وأوزانها أقدار وأوزان لا عهد لأهل الأرض بها، والأرض نفسها إذا قيست بهذه الأجرام ليست إلا هباءة دقيقة فى الفضاء... قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءا من السموات وانفصلت عنها، وقرر الكتاب الكريم أن الله{ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ} [فصلت: ١١]، وهذا الذى قرره الكتاب الكريم هو الذى دل عليه العلم. وقد قال العلماء إن حادثا كونيا جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها، وإن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعًا، كل قطعة منها صارت سيَّارا من السيَّارات، وهذه السيَّارات هى بنت الشمس، والشمس هى المركز لكل هذه السيَّارات. فليست الأرض هى مركز العالَم كما ظنه الأقدمون، بل الشمس هى مركز هذه المجموعة، والشمس وتوابعها قوى صغيرة فى العالَم السماوى. وأين هى من الشِعْرَى اليمانية التى قال الله سبحانه فيها: {وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾} [النجم: ٤٩] ؟ فهذا النجم قدرته على إشعاع الضوء تساوى قوة الشمس ٢٦ مرة، وقدرته على إشعاع الحرارة مثل قدرته على إشعاع الضوء. فلو فُرِض أن الشِّعْرَى اليمانية حلَّت محل الشمس يوما من الأيام لانتهت الحياة فجأة بغليان الأنهار والمحيطات والقارات الجليدية التى حول القطبين. وضوء الشِّعْرَى اليمانية يصل إلينا بعد ثمان سنوات، وضوء الشمس يصل إلينا بعد ثماني دقائق، فانظر إلى هذا البُعْد السحيق. وليست الشِّعْرَى اليمانية أكبر نجم فى السماء، فهناك بعض النجوم قدرتها تزيد على قدرة الشِّعْرَى أكثر من عشرة آلاف مرة. وعظمة السماء ليست فى الشمس وتوابعها.

كلا، إن عظمتها فى مدنها النجومية، وفى أقدارها وأوزانها وأضوائها وأبعادها على اختلاف أنواعها. وهناك نجم يسمى: " المجرة " أكبر من شمسنا بما يزيد عن ثلاثين مليونا من المرات. وهناك السدائم، وهى قريبة من الخلق أول الأمر. ثم يقف علم الإنسان، والله تعالى وحده يعلم خلقه: {مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ} [الكهف: ٥١].

{وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ} [النحل: ١٥]، أى خلق الجبال فى الأرض لئلا تميد الأرض وتضطرب. ولبيان هذا يمكن أن نقول باختصار: إن الأرض بعد انفصالها عن الشمس وعكوفها على الدوران حولها على بُعْدٍ منها وصلت بعض موادها إلى حالة السيولة بعد أن كانت موادَّ ملتهبة كالشمس، وتكوَّنت عليها قشرة صلبة بعد تتابع انخفاض الحرارة أحاطت بما فى جوفها من المواد المنصهرة، ثم تتابعت البرودة على القشرة فتجعَّدت، وحدث من التجعد نتوءات وأغوار: فالجبال الأولى نتوء القشرة الصلبة التى غلَّفت الأرض. وهناك جبال جدَّت عن اشتداد الضغط فى الرواسب التى فى قاع البحر، وجبال نارية جدَّت من خروج الحمم النارية من وسط الأرض وتداخلها فى الطبقات حتى صارت كأوتاد مغروزة فيها. والجبال كلها تتحمل الضغوط الرسوبية على جدرانها وتوزعها وتغير اتجاهها وتكسر حدتها، وتساعد بذلك على بقاء الطبقة المفككة الصالحة للإنبات والتى يتغذى بواسطتها الحيوان والإنسان وتحفظها من أن تمور. فالجبال أولاً حبست النار فى جوف الأرض، وصيَّرت الأرض بعد ذلك صالحة للحياة. والجبال توزع ضغوط الطبقات، ثم بعد ذلك تكسر حدة العواصف والرياح، فهى حافظة للأرض

من الميدان الذى يجىء بأسباب من داخل الأرض، والذى يجىء بسبب العواصف والرياح... إلخ " (الشيخ محمد مصطفى المراغى/ حديث رمضان/ كتاب الهلال/ العدد ٣٢٨/ نوفمبر ١٩٧٠م/ ٦١ فصاعدا. وانظر كلامه فى نفس الموضوع ص ١٦١ وما بعدها أيضا). فعلام يدل هذا؟ ألا يدل على أن تجاهل التقدم العلمى عند تفسير القرآن أمر صعب وغير مستحسن، وإلا فكيف نسى هذا المفسران الجليلان ما قالاه وانتفعا بمباحث العلوم الحديثة؟ والمهم ألا يفتئت المفسر العلمى على كتاب الله فيلويه عن وجهه، أو يقوّله ما لم يقل، أو يهجم على ما ليس واضحا له ولا عقله مطمئن إليه، أو يعجل بشرحه على ما لم يتأكد بعد من أقوال العلماء واجتهاداتهم التى لا تزال فى طور التحقق والتمحيص رغبة منه فى الإتيان بشىء جديد لإبهار الناس وطلبا للشهرة وحسن السمعة.

وتبقى سخرية بعض المنتسبين إلى الإسلام من جهود المفسرين العلميين وقولهم عنهم إنهم إنما ينتظرون إلى أن يكتشف الغربيون شيئا جديدا فى ميدان العلم فيَهُبّوا فقط ساعتئذ إلى تفسير آيات القرآن فى ضوء تلك الاكتشافات. ثم يضيفون أن أولئك المفسرين لو كانوا على حق لكانوا قاموا هم أنفسهم بتلك الاكتشافات قبل الغربيين. وهذا اعتراض فى غير محله، وإن كنا نوافق على أنه كسلٌ من المسلمين وعارٌ عليهم أن يتخلفوا عن غيرهم من الشعوب المتقدمة. أما أنه اعتراض فى غير محله فلأن مهمة المفسر ليست اكتشاف القوانين والحقائق العلمية، بل تفسير القرآن مستعينا بكل ما تطوله يده لذلك التفسير، ومنه تلك الحقائق والقوانين. والمهم، كما قلنا، ألا يعتسف التفسير فيحمّل النصوص ما ليس فيها

ويقوّلها ما لا تقول. كذلك من الممكن أن يقال لهؤلاء الساخرين: ولماذا لا تشمّرون أنتم أيضا عن ساعد الجِدّ وتنافسون الغربيين فى الاكتشافات والاختراعات؟ أم إن مهمتكم تنحصر فقط فى الاعتراض والتهكم؟ ثم هل يقول عاقل بأن أمر الاكتشاف والاختراع فى عصرنا هذا يمكن أن ينهض به الأفراد بعيدا عن المؤسسات الكبيرة التى تستطيع وحدها تمويل مثل تلك المشاريع؟ كذلك يجب على المسؤولين فى بلاد العرب والمسلمين أن يتخذوا من التفاسير العلمية للقرآن المجيد حافزا للدعوة إلى نهضة علمية حقيقية لا يكتفى فيها الدارسون باجترار ما يقوله العلماء الغربيون، بل يبدعون ويكتشفون ويضيفون وتكون لهم إنجازاتهم هم أيضا. كما ينبغى ألا يترك المسؤولون البحوث العلمية بعد فراغ أصحابها منها لمصيرها المجهول الذى يتربص بها الآن، بل يعملون بكل ما يستطيعون على تحويلها إلى واقع. على أن يفهم المهتمون بالتفسير العلمى أن تناول الآيات القرآنية من هذه الوجهة ليست نهاية المطاف أو أن كل شىء سوف يكون " عالى العال " إذا أثبتنا أن القرآن لا يصادم العلم، إذ ليست هذه سوى الخطوة الأولى التى ينبغى أن تتلوها خطوات أخرى إن لم تنته بأن نناطح من سبقونا وتفوقوا علينا فى ميدان العلم الطبيعى والرياضى والاكتشافات والاختراعات ونسامتهم على الأقل، إن لم نتجاوزهم مع الأيام، فنحن إذن لم نصنع شيئا.

وأيا ما يكن الأمر فما زال هذان الموقفان المتعارضان قائمين حتى الآن. وقد كتب الدكتور زغلول النجار مقالا فى هذا الموضوع فى " أهرام " الاثنين ١٨/ ٩/ ٢٠٠٦م بعنوان " ضوابط التفسير العلمى للقرآن

الكريم " نبه فيه إلى عدة احتياطات ينبغى أن يلتزم بها من يتصدى لتفسير القرآن تفسيرا علميا، إذ لا بد له أن يتعمق فى اللغة والبلاغة وعلوم القرآن، وألا يجرى وراء النظريات العلمية التى لم تتحول إلى حقائق بعد. كما ينبغى أن يبتعد بوجه عام عن التفاصيل العلمية الدقيقة التى لا تخدم غرض التفسير العلمى كالمعادلات الرياضية المعقدة والرموز الكيميائية الدقيقة مثلا. كذلك لا يصحّ له القول بأن هذا الذى توصل له هو معنى الآية، بل عليه التأكيد بأن هذا ليس سوى فهمه هو الذى يمكن أن يخطئ، ويمكن أن يصيب. وبالمثل عليه الابتعاد تماما عن الغيبيات التى لا تدخل فى إطار العلم البشرى كذات الله والروح والملائكة والجن والبرزخ وما إلى ذلك. وهذا كلام معقول جد معقول، وكل جهد بشرى عرضة لمغامسة الخطإ مهما اتخذ صاحبه من الاحتياطات ووجوه الحذر، فلا يصح اتخاذ احتمال وقوع المفسر العلمى فى الخطإ تكأة لإغلاق بابه تماما، وإلا فلن تتقدم البشرية خطوة، لأنها معرضة فى كل خطوة تخطوها إلى السقوط فى الغلط كما قلنا، بل لا بد من التقدم والمغامرة ما دام السائر قد اتخذ كل ما يستطيع من احتياطات. وعلى الله قصد السبيل. أقول هذا رغم ما لاحظته من أن الدكتور النجار أحيانا ما يغلو ويحمّل النص القرآنى فوق طاقته ويسبغ عليه من المعنى ما لا تتقبله اللغة التى صِيغَ بها ولا السياق الذى ورد فيه. والمعروف أن كلّ متخصص فى علم أو فن أو صنعة فإنه يتحمس لها تحمسا شديدا ويكاد يراها فى كل شىء. وهذا أمر يوشك أن يكون فطريا يجرى فى العروق، ولولاه لهمدت القرائح وتبلدت، فإن التمركز حول الذات وما يتصل بها

هو أحد الدوافع التى تبعث البشر على النشاط والعمل والإبداع، والمهم ألا تتجاوز تلك الحماسة حدودها المقبولة، وأن يقيم الإنسان من نفسه رقيبا على تجاوزاته، وإلا فهناك عين المجتمع التى لا تكف عن المراقبة والمراجعة والانتقاد شئنا أم أبينا. كذلك فكل بنى آدم خطاء كما يقول الرسول، فلا خوف إذن من العمل والتقدم إلى الأمام، فلن يكون ذلك نهاية العالم. وعلينا التحرك والعمل والإبداع، أما الوسوسة الزائدة قبل الإقدام على عمل شىء والانتهاء إلى ألا يتخذ الإنسان أية خطوة فى اتجاه الهدف خشية الخيبة والفشل فهو الشلل القاتل، والعياذ بالله.

و فى حدود ما أعلم فإن كتاب " الجواهر فى تفسير القرآن الكريم " للأستاذ طنطاوى جوهرى هو التفسير الوحيد من هذا النوع الذى يتناول القرآن كله آية آية. وهو كتاب كبير الحجم حتى ليستغرق خمسة وعشرين مجلدا كبيرا. ومن نظرتنا فى هذا التفسير يتضح لنا أن صاحبه لم يكن يملأ كتابه بكل شىء ما خلا التفسير كما شنع عليه بعض من لا يتفقون معه، إذ هو يفسر الألفاظ القرآنية التى تحتاج إلى تفسير، ويستخلص العبر أو المقاصد من النص الإلهى، ويتحدث عن سبب نزول الآية وعن الناسخ والمنسوخ وغير ذلك مما يتعلق بالنص ويتناوله المفسرون الآخرون. ثم هو، فوق هذا، لا يترك فرصة للكلام عن تأخر المسلمين وتقصيرهم التام فى الارتقاء إلى المرتبة التى يصدق عليهم عندها الوصف بأنهم خير أمة أخرجت للناس إلا اهتبلها وبصَّرهم بمستجدات العلوم والاكتشافات والاختراعات، وحثهم على بذل الجهد، وحذرهم بالمصير السيئ الذى ينتظرهم إن استمروا فى البلادة التى هم منغمسون

فيها، وهو ما تحقق وما زال يتحقق حتى الآن. فكيف بالله يلام الرجل على أنْ جعل تفسيره للقرآن حَيًّا حارًّا؟ أولا يصح التفسير إلا أن يكون عقليا باردا، ولا يتناول إلا مسائل الفقه وآيات الصفات مثلا أو قضايا الماضى التى ولت ولا يهتم بحاضر المسلمين ولا بالمصائب التى تسقط على رؤوسهم تباعا ولا يتعلمون منها أبدا، ولا يلفت انتباههم إلى الإثم الرهيب الذى يواقعونه دوما حين يكتفون باجترار ما وصلت إليه أمم الغرب من مقررات العلم دون أن ينشطوا للمشاركة فيه والخروج من دائرة التخلف الجهنمية التى تحاصرهم من فوقهم ومن تحتهم ومن يمين لهم وشمال وخلف وقدام؟ لقد تساءل الرجل بحق: " لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب الإسلامية فى علمِ الفقه، وعلمُ الفقه ليس فيه فى القرآن إلا آيات قلائل لا تصل مائة وخمسين آية؟ فلماذا كثر التأليف فى علم الفقه، وقَلَّ جدًّا فى علوم الكائنات التى لا تخلو منها سورة؟ بل هى تبلغ سبعمائة وخمسين آية صريحة، وهناك آيات أخرى دلالتها تقرب من الصراحة. فهل يجوز فى عقلٍ أو شرعٍ أن يبرع المسلمون فى علمٍ آياته قليلة، ويجهلوا علمًا آياته كثيرة جدًّا؟ إن آباءنا برعوا فى الفقه، فلنبرع نحن الآن فى علم الكائنات، ولنقم به لترقى الأُمة ".

والآن فلنستمع إلى الحكم الذى أصدره د. محمد حسين الذهبى على تفسير الشيخ طنطاوى جوهرى. قال: " إنى، بعد أن قرأت الكثير من هذا التفسير، أستطيع أن أعطيك صورة واضحة عن منهج المؤلف وطريقته التى سلكها فيه. وذلك أن المؤلف رحمه الله يفسر الآيات القرآنية تفسيرا

لفظيا مختصرا لا يكاد يخرج عما فى كتب التفسير المألوفة لنا والمتداولة بين أيدينا، ولكنه سرعان ما يخلص من هذا التفسير الذى يسميه: لفظيا، ويدخل فى أبحاث علمية مستفيضة يسميها هو: " لطائف " أو " جواهر ". هذه الأبحاث عبارة عن مجموعة كبيرة من أفكار علماء الشرق والغرب فى العصر الحديث أتى بها المؤلف ليبين للمسلمين ولغير المسلمين أن القرآن الكيم قد سبق إلى هذه الأبحاث ونبَّه على تلك العلوم قبل أن يصل إليها هؤلاء العلماء بقرون متطاولة. ثم إننا نجد المؤلف، رحمه الله، يضع لنا فى تفسيره هذا كثيرا من صور النباتات والحيوانات ومناظر الطبيعة وتجارب العلوم بقصد أن يوضح للقارئ ما يقول توضيحا يجعل الحقيقة أمامه كالأمر المشاهَد المحسوس. كذلك نجد المؤلف، رحمه الله، يستشهد أحيانا على ما يقول بما جاء فى الإنجيل. واعتماده فيما ينقل على إنجيل " برنابا " لأنه، كما يرى، أصح الأناجيل، بل هو الإنجيل الوحيد الذى لم تصل إليه يد التحريف والتبديل كما قيل. وكثيرا ما نرى المؤلف، رحمه الله، يشرح بعض الحقائق الدينية بما جاء عن أفلاطون فى " جمهوريته "، أو بما جاء عن إخوان الصفا فى رسائلهم. وهو حين ينقلها يُبْدِى لنا رضاه عنها وتصديقه بها مع أنها تخالف الثابت عن رسول الله ﷺ. كما أنه يستخرج كثيرا من علوم القرآن بواسطة حساب الجُمَّل الذى لا نُصدِّق أنه يوصل إلى حقيقة ثابتة، وإنما هى عدوى تسربت من اليهود إلى المسلمين فتسلَّطت على عقول الكثير منهم. هذا، وإنَّا لنجد المؤلف، رحمه الله، يُفسِّر آيات القرآن تفسيرا علميا يقوم على نظريات حديثة وعلوم جديدة لم يكن للعرب عهد بها من قبل.

ولست أرى هذا المسلك فى التفسير إلا ضربا من التكلف، إن لم يذهب بغرض القرآن فلا أقل من أن يذهب بجلاله وجماله ".

والعجيب أن د. محمد حسين الذهبى، رغم إقراره فى بداية الاقتباس الذى نقلناه فى الفقرة السابقة بأن تفسير " الجواهر " فيه ما فى التفسيرات الأخرى من مباحث، وإن كان يزيد عليها كثرة الكلام فى العلوم، فإنه يعود فى نهاية المطاف فيحكم عليه بأن فيه كل شىء ما عدا التفسير. والحق أن هذا حكم ظالم، وإن كنت لا أقصد إلى القول بأن كل ما قاله الرجل أو اقتبسه من كلام علماء الطبيعة والرياضيات أو عن إخوان الصفا أو غيرهم هو كلام صحيح، أو أننا نتفق معه فيما قاله مثلا عن الدجل المسمَّى " تحضير الأرواح " أو فى لجوئه إلى حساب الجُمَّل وخرافاته لاستخراج أشياء فى القرآن لا وجود لها إلا فى خيالاته. لكن السؤال هو: أوليس فى كل كتاب من كتب التفسير أخطاء؟ وهل هناك كتاب منها حاز رضا الناس والعلماء جميعا؟ إن الرجل يجتهد، ولكل مجتهدٍ نصيب وأجر إن شاء الله، والاجتهاد يعنى أن صاحبه معرض للصواب والخطإ. أما قول الدكتور الذهبى إن نقل الشيخ طنطاوى كلام العلم الحديث فى تفسيره يذهب ببهاء القرآن فلا نوافقه عليه، إذ متى كان القرآن يكره العلم ويتجهم للعلماء؟ أوسبب هذا أن هؤلاء العلماء غير مسلمين؟ ولكن متى كان للعلم وطن؟ إن الحقيقة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها، وما من كتاب سماوى حضّ على العلم وكرّم العلماء مثلما صنع القرآن. ولا ننس أن ما يتوصل إليه علماء الغرب الآن من علم إنما هو امتداد للعلم العربى، الذى هو بدوره امتداد وتصحيح واستدراك وإضافة

لما سبقه من العلوم التى كانت موجودة لدى الأمم السابقة... وهكذا. ثم إن القرآن المجيد لم ينزل لعرب المبعث وحدهم، ولا للعرب فى كل العصور فقط، بل نزل للبشرية جميعا فى كل عَصْرٍ ومِصْرٍ. ولقد قرأتُ منذ سنين طوال مقالا لرجاء النقاش يثنى على تفسير " الجواهر " وصاحبه ثناء عظيما. ولكنى لا أذهب هذا المذهب أيضا، بل الذى أراه هو أن فى الكتاب خيرا كثيرا، وفيه كذلك أخطاء، وقد تكون هى أيضا أخطاء كثيرة. ولكنْ كما قال النابغة أخو بنى ذُبْيَان: " أىُّ الرجال المهذَّبُ "؟

فمثلاً لا أرانى أجد بأسا بما كتبه صاحب " الجواهر " عندما تعرَّض لقوله تعالى فى الآية ٦١ من سورة " البقرة ": {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ} [البقرة: ٦١]... الآية " تحت عنوان: " الفوائد الطيبة فى هذه الآية "، إذ أخذ فى بيان ما أثبته الطب الحديث من نظريات طبية، ذاكرا مناهج أطباء أوروبا فى الطب، ثم قال: " أَوليست هذه المناهج هى التى نحا نحوها القرآن؟ أَو ليس قوله{ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ} رمزا لذلك؟ كأنه يقول: العيشة البدوية على المن والسلوى، وهما الطعامان الخفيفان اللذان لا مرض يتبعهما، مع الهواء النقى والحياة الحرة، أفضل من حياة شقية فى المدن بأكل التوابل واللحم والإكثار من ألوان الطعام مع الذلة وجور الحكام والجبن وطمع الجيران من الممالك، فتختطفكم فى حين غفلة وأنتم لا تشعرون. بمثل هذا تُفسَّر هذه الآيات. بمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله ".

وكذلك لا أستطيع أن أرى بأسا فى كلامه التالى تعليقا على قوله تعالى فى الآية من سورة " طه ":{ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦} [طه: ٥ - ٦] : " قوله:{وَمَا بَيْنَهُمَا} دخل فى ذلك عوالم السحاب والكهرباء وجميع العالم المسمى: " الآثا العلوية "، وهو من علوم الطبيعة قديما وحديثا. وقوله:{وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ} يشير لعِلْمَيْن لم يُعْرَفا إلا فى زماننا، وهما علم طبقات الأرض المتقدم مرارا فى هذا التفسير، وعلم الآثار المتقدم بعضه فى سورة " يونس ". فالله هنا يقول:{وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ} ليحرص المسلمون على دراسة علوم المصريين التى تظهر الآن تحت الثرى ".

كذلك هل ثمة من يخالف ما قاله الشيخ فى الفقرة التالية التى كتبها تعليقا على بعض الحروف المقطعة فى أول سورة " آل عمران " ؟ : " انظر، رعاك الله، تأمَّل. يقول الله:{الٓمٓ}،{طسٓ}،{حمٓ}... وهكذا يقول لنا: أيها الناس، إن الحروف الهجائية إليها تحلل الكلمات اللغوية، فما من لغة فى الأرض إلا وأرجعها أهلها إلى حروفها الأصلية، سواء أكانت اللغة العربية أم اللغات الأعجمية، شرقية وغربية. فلا صرف ولا إملاء ولا اشتقاق إلا بتحليل الكلمات إلى حروفها، ولا سبيل لتعليم لغة وفهمها إلا بتحليلها. وهذا هو القانون المسنون فى سائر العلوم والفنون. ولا جَرَمَ أن العلوم قسمان: لغوية وغير لغوية، فالعلوم اللغوية مقدَّمة فى التعليم لأنها وسيلة إلى معرفة الحقائق العلمية من رياضية وطبيعية وإلهية. فإذا كانت العلوم التى هى آلة لغيرها لا تُعْرَف حقائقها إلا بتحليلها إلى أصولها، فكيف إذن تكون العلوم المقصودة لنتائجها المادية والمعنوية؟ فهى أولى

بالتحليل وأجدر بإرجاعها إلى أُصولها الأَوَّلية التى لا تعرف الحساب إلا بمعرفة بسائط الأعداد، ولا الهندسة إلا بعد علم البسائط والمقدمات، ولا علوم الكيمياء إلا بمعرفة العناصر وتحليل المركبات إليها، فرجع الأمر إلى تحليل العلوم ".

لكنى فى ذات الوقت لا أوافقه على ما يقوله عن تحضير الأوراح مثلا، إذ نجده، عند تعرّضه لقوله تعالى فى الآية ٦٧ وما بعدها من سورة البقـــرة: {وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً} [البقـــرة: ٦٧]... الآيات "، يعقد مبحثا فى عجائب القرآن وغرائبه، ذاكرا ما انطوت عليه تلك الآيات من هذه العجائب والغرائب، مشيرًا أثناء ذلك إلى تحضير الأرواح، الذى يسميه للأسف: " عِلْمًا "، وما هو بالعلم، فيقول: " وأما علم تحضير الأرواح فإنه من هذه الآية استخراجه. إن هذه الآية تُتْلَى، والمسلمون يؤمنون بها، حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أوّلاً، ثم بسائر أوروبا ثانيًا ". ثم يتحدث عن مبدإ ظهور هذا الأمر وانتشاره بين الأمم وفائدته... إلى أن يقول: " ولما كانت السورة التى نحن بصددها قد جاء فيها حياة للعُزَيْر بعد موته، وكذلك حماره، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الطاعون فماتوا ثم أحياهم، وعلم الله أننا نعجز عن ذلك، جعل قبل ذكر تلك الثلاثة فى السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح فى مسألة البقرة، كأنه يقول: إذا قرأتم ما جاء عن بنى إسرائيل فى إحياء الموتى فى هذه السورة عند أواخرها فلا تيأسوا من ذلك، فإنى قد بدأت بذكر استحضار الأرواح، فاستحضروها بطرقها المعروفة، واسألوا أهل الذِّكر إن كنتم لا تعلمون.

ولكن ليكن المُحَضِّر ذا قلب نفى خالص على قدم الأنبياء والمرسلين كالعُزَيْر وإبراهيم وموسى، فهؤلاء لعُلُوّ نفوسهم أَرَيْتُهم بالمعاينة، وأنا أمرت نبيكم أن يقتدى بهم فقلت:{ بِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ } [الأنعام: ٩٠]. ذلك أنه لا علاقة هنالك بين ما تقوله الآية الكريمة وما يزعمه دَجّالو تحضير الأرواح. ولا شك أن الشيخ قد انخدع بهذه المزاعم، إلا أنه لم يكن وحده من بين علماء المسلمين فى ذلك الوقت الذى انخدع بها. وبالمثل لا يمكن الموافقة على ما يذكره أحيانًا من خيالات يتحول بها من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح فيلتقي بروح البصيرة فيحدثها وتحدثه، وكثيرا ما يسميها: إلهامًا أو نفحة ربانية وإشارة قدسية وبشارة رمزية، بل قد يختلط عليه الأمر فلا يدري عَمَّ كتب: أهو حلم أم حديث نفس أم إلهام؟ ومثل هذه الاشياء لا يمكن أن تُحْسَب لصالحه أبدا. كذلك لا نرضى أبدا بتقليله من شأن العلماء القدامى وتفاسيرهم وتصويره لتفسيره على أنه هو وحده التفسير الصحيح. بيد أنه لا يصحّ، فى ذات الوقت، أن نعامل كل ما قاله فى تفسيره وكأنه من نفس هذه الطينة، إذ إن فيما قاله كثيرا من الخير بلا جدال.

وإذا كنا قد سقنا رأى دارس كبير كالدكتور محمد حسين الذهبى فى تفسير " الجواهر " فقد يكون من باب إقامة التوازن أن نسوق أيضا ما كتبه الدكتور زغلول النجار فى ذلك الكتاب، إذ يقدم رؤية مغايرة. قال: " أما تفسير الشيخ طنطاوي جوهري والمُعَنْوَن: " الجواهر في تفسير القرآن الكريم " فيعتبر أضخم تفسير ينهج النهج العلمي، اذ يقع في خمسة وعشرين جزءا كبارا حاول فيها الشيخ، يرحمه الله، تفسير القرآن الكريم

تفسيرا يتجاوب مع روح العصر وما وصلت اليه المعارف الانسانية في مجال دراسات الكون وما فيه من أجرام سماوية، ومن عوالم الجمادات والأحياء، ومن الظواهر الكونية التي تصاحبها، والسنن الالهية التي تحكمها، ليبرهن للقاريء أن كتاب الله الخالد قد أحاط بالكون في تفصيل وبيان وايضاح غفل عنه كثير من السابقين، وأنه بحق ينطوي علي كل ما وصل وماسيصل إليه البشر من معارف. هذا، وقد نعى الشيخ الجوهري، رحمه الله، على علماء المسلمين إهمالهم للجانب العلمي في القرآن الكريم وتركيز جهودهم علي الجوانب البيانية والفقهية فقط بقوله: لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب في علمِ الفقه، وعلمُ الفقه ليس له في القرآن الا آيات قلائل لاتصل إلى مائة وخمسين آية؟ فلماذا كثر التأليف في علم الفقه، وقلَّ جدا في علوم الكائنات التي لا تكاد تخلو منها سورة؟ ولذا فإننا نجده في مطلع تفسيره يتوجه بنداء الي المسلمين يقول فيه: يا أمة الاسلام، آيات معدودات في الفرائض (يقصد آيات الميراث) اجتذبت فرعا من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها؟... هذا زمان العلوم، وهذا زمان ظهور الاسلام... هذا زمان رقيّه. يا ليت شعري لماذا لانعمل في آيات العلوم الكونية مافعله أباؤنا في علوم الميراث؟ ثم يضيف أن نظام التعليم الإسلامي لابد من ارتقائه، فعلوم البلاغة ليست هي نهاية علوم القرآن بل هي علوم لفظه، وما نكتبها اليوم (يقصد ما يكتبه فى تفسيره)، علوم معناه ".

ولم يكتف الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره بتتبع الآيات واستنتاج معانيها وفق ما ارتآه فيها من إشارات إلى مختلف الدراسات الحديثة، بل

إنه قد استعان في هذا التفسير الفريد من نوعه بكثير من صور النباتات والحيوانات والمظاهر الكونية والوسائل التجريبية، كما استخدم الآراء الفلسفية عند مختلف المدارس الفكرية، وكذلك الأرقام العددية التي ينظمها حساب الجمَّل المعروف. وقد اعتبر المفسرون من بني عصره ذلك المنهج العلمي في التفسير، كما اعتبر من قبل، جنوحا إلى الاستطراد في تأويل بعض آيات القرآن الكريم على غير مقاصدها التشريعية والإيمانية، استنادا الي الحقيقة المسلمة أن القرآن لم يأت لكي ينشر بين الناس القوانين العلمية ومعادلاتها، ولا جداول المواد وخصائصها، ولا قوائم بأسماء الكائنات وصفاتها، وإنما هو في الأصل كتاب هداية، كتاب عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، وهي ركائز الدين التي لا يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه فيها ضوابط صحيحة. والقرآن العظيم حين يلفت نظر الانسان إلى مختلف مظاهر هذا الوجود إنما يعرض لذلك من قبيل الاستدلال على قدرة الخالق العظيم وعلمه وحكمته وتدبيره، ومن قبيل إقامة الحجة البينة علي الجاحدين من الكافرين والمشركين، ومن قبيل التأكيد على إحاطة القدرة الإلهية بالكون وبكل مافيه وعلى حاجة الخلق في كل لحظة من لحظات الوجود إلى رحمة ذلك الخالق العظيم.

فهذا هو الشيخ محمد رشيد رضا، يرحمه الله، يكتب في مقدمة تفسيره المنار مانصه: " وقد زاد الفخر الرازي صارفا آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة علي ما كانت عليه في عهده، كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها، وقلده بعض المعاصرين (ويقصد الشيخ طنطاوي

جوهري) بإيراد مثل هذا من علوم العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية، فصولا طويلة، بمناسبة كلمة مفردة كالسماء أو الأرض، من علوم الفلك والنبات والحيوان، تصد القاريء عما أنزل الله لأجله القرآن.

وعلى الرغم من استنكار علماء التفسير لهذا المنهج العلمي قديما وحديثا، إلا أن عددا كبيرا من العلماء المسلمين ظل مؤمنا بأن الإشارات الكونية في كتاب الله، أي الآيات المتعلقة ببعض أشياء هذا الكون على إجمالها وتناثرها بين آيات الكتاب المجيد، تبقي بيانا من الله خالق الكون ومبدع الوجود، ومن ثم فهي حق مطلق، وصورة من صور الإعجاز في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وإن ذلك قد لا يتضح إلا للراسخين في العلم من المتخصصين في مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية: كل في حقل تخصصه. وحتى هؤلاء يظل يتسع إدراكهم لذلك الإعجاز باتساع دائرة المعرفة الانسانية جيلا بعد جيل، وعصرا بعد عصر، مصداقا لقول الحق تبارك وتعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾} [ص: ٨٧ - ٨٨]، ولقول رسول الله ﷺ في وصفه للقرآن الكريم بأنه لاتنقضي عجائبه، ولا يَخْلَق من كثرة الرد. ومن هنا كان واجب المتخصصين من المسلمين في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية في كل عصر وفي كل جيل أن تنفر منهم طائفة للتسلح بمستلزمات تفسير كتاب الله من إلمام بقدر كاف من علوم اللغة العربية وآدابها، ومن الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، وعلم الكلام وقواعده، مع معرفة بعادات المجتمع العربي الأول، وإحاطة بأسباب النزول،

وبالمأثور في التفسير، وبالسيرة النبوية المطهرة، وباجتهاد أعلام السابقين من أئمة المفسرين، وغير ذلك من الشروط التي حددها علماء التفسير وأصوله، ثم تقوم تلك الطائفة على شرح آيات الكتاب الحكيم، كل فيما يخصه، حتي تستبين للناس جوانب من الإعجاز في كتاب الله لم يكن من السهل بيانها قبل عصر العلم الذي نعيشه، وحتى يتحقق قول الله تعالى في محكم كتابه:{لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾} [الأنعام: ٦٧].

هذا، وأترك القارئ مع فهرس المجلد الأول الذى اقتطفت منه العناوين التالية، وتركت أضعافها كى يرى بنفسه الموضوعات التى يتناولها الشيخ فى تفسيره: " خطبة الكتاب، وفيها دعوة المسلمين عامة إلى البحث في العلوم الكونية. تفسير سورة الفاتحة. عجائب الحيوانات في تفسير معنى الرحمة. عجائب النمل والنحل والعنكبوت في توضيح معنى الرحمة... دعوة المؤلف جميع المسلمين من سنيين وشيعيين وزيديين وغيرهم أن يدرسوا النبات والطب والمعادن وجميع العالم العلوي والسفلي. ضرب المثل للعالم العلوي بامرأة جميلة وفتيات يدرن حولها أقل منها جمالا، وهكذا. العالم السفلى، عالم النبات، عالم الحيوان، علم التشريح... معنى{إِيَّاكَ نَعْبُدُ} إلخ. شمول الصراط المستقيم للعفة والشجاعة والحكمة والعدل، وهي أصول علم الأخلاق. أقسام النعم: المال، الأصحاب، الأهل، الأعوان، الصحة، العقل، الحكمة، وجوب الاحتفاء بالنافعين للأمة. حكاية سولون الحكيم اليوناني. " الفاتحة " أم القرآن... مقارنة " فاتحة الكتاب " بفواتح البلغاء وأصحاب المعلقات. ذكر فواتح

المعلقات السبعة مع شرحها وفواتح ثلاث قصائد أخرى وموازنتها بالفاتحة وبأوائل السور... تقسيم سورة " البقرة " إلى بابين عظيمين: الأول غلب فيه التوحيد ومحاجة اليهود، والثاني غلب فيه الأحكام الشرعية، وفي كل منها عشرة مقاصد. تفسير {الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ} [البقرة: ١ - ٢]. التفسير اللفظي لآيات: {إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ} [البقرة: ٦] إلخ. التفسير اللفظي لآيات: {وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ} [البقرة: ٨]... إلخ المقصد الثالث في قوله: {مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا} [البقرة: ١٧]... إلخ. التفسير اللفظي لهذا القسم. المقصد الرابع: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ} [البقرة: ٢١]... إلخ. التفسير اللفظي لهذا القسم. إيضاح وتفصيل. فصل آخر في هذه الحكم الكونية، وفيه تفضيل التشبيه الذي في هذه الآية على تشبيه ابن المعتز في قوله: " وساقٍ صَبِيحٍ... إلخ ". بدائع العلم لمناسبة تفسير {ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ} [البقرة: ٢٢]... العلم المنتشر في المدارس المصرية لا يهدى الطالب. تفصيل الكلام على الأنداد وعبادة الاصنام. من الأمم من مات عندها العظيم فعبدته. الصابئون عبدوا الملائكة فالكواكب فالأصنام.... الآلهة الهندية الثلاثة، وهم برهما وفشنو وسيفا، ومعناها الخالق والحافظ والمهلك. التثليث عند الفرس وقدماء اليونان. الأصنام عند العرب الذين نزل عليهم القرآن. جنة العارفين، وهي المعارف، وجنة البُلْه، وهي التي فيها المأكول والمشروب واللذات الحسية. ضرب الأمثال وأن منها ما هو ظاهر كقوله: {مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا} [البقرة: ١٧]... إلخ. ومنها ما يحتاج إلى تأمل مثل أوصاف

الآخرة وأحوالها. ضرب مثل يبين فيه اختلاف مشارب الناس بالفهم، فالمرأة الجميلة ينظر لها ابنها وأبوها وأخوها وزوجها كل ينظر خاص، وأربعة من العلماء يفسرون قوله تعالى:{ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ } [الأحزاب: ٢١] بما يناسب معارفهم. في مسألة حرب الكفرة. فتوى علماء بخارى لأميرها بتحريم الحرب بالمدافع وضياع البلاد. المقصد الخامس:{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ} [البقرة: ٢٨]... إلخ، وكيف يقول الله: خلق لكم ما في الأرض جميعا، والغابات والمرجان في البحار وغيرها في يد الفرنجة؟ الكلام على السموات السبع. التفسير اللفظي لهذا المقصد. السموات السبع في الإنجيل. موافقته لآراء اليونان. كيفية خلق العالم في الآراء الحديثة. أبعاد السيارات الثمانية. السيارات العلوية والسيارات السفلية. النجوم الثوابت وأن منها ما يصل نوره لنا من ألف سنة نورية. أقدار الكواكب وعدد نجومها وأن مجموعها ٢٢٤ مليونا من النجوم. علوم القدماء قاصرة في عالم السموات، وجمال الله وقدرته ظاهران في العلم الحديث... المقصد السادس:{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ } [البقرة: ٣٠]... إلخ. التفسير الفظي لهذا المقصد. بحثٌ ضافٍ تحت عنوان " الإيضاح في الحكمة العلمية والعملية "، واشتمال قصة آدم على الحكمة العملية والعلمية... آراء أهل الديانات والحكماء في الملائكة، وهي خمسة، ثم رأي علماء الهند. بيان علم الأخلاق من قصة آدم وقابيل وهابيل، وهي ترجع لأحوال ثلاث: كِبْر إبليس وحرص آدم وحسد قابيل، والأخلاق المنحرفة متفرعة عليها...{مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ } [البقرة: ١٠٦]... إلخ. لم كان الناسخ والمنسوخ في القرآن؟

والجواب عليه بعالم النبات ونسخه بمختلف الفصول ونسخ الصناعات والأحوال، وحض المسلمين أن يجاروا أوربا وأمريكا كبلاد الأرجنتين في رقيّ الزراعة بالآلات الحاصدة الحارثة الخازنة المذرية... إلخ، وكيف يحلبون بقرهم، وهكذا، وإلا هلك المسلمون وبادوا، وبما تقدم يكونون خير أمة أُخْرِجَتْ للناس، فخير الناس أعلمهم فيكون أنفع لهم، وأين ذلك اليوم؟ الناسخ والمنسوخ. الآيات الناسخة والآيات المنسوخة وأنها ٢١ آية. نَظْمٌ في ذلك للشيخ السيوطي... الأمم الضعيفة تقلد الغالبة في أخلاقها وتقاليدها كما قلد بنو إسرائيل المصريين فعبدوا عجلهم فأمروا بذبح البقرة ليعلموا أنها لا تعبد. حكمة تخصيص الحجر بضربه العصا ليدل على أن الأحجار تنفجر منها المياه بسبب اختصاص الثلج بأنه يكبر إذا برد. فالجاهل يكتفي بعصا موسى، والعالم يعرف العصا الإلهية، ونبع العيون بعظم حجم الثلج، وعجائب السحاب والماء، وأن في هذه السورة عجائب من علم تحضير الأرواح في هذا المقام، وتحريم الربا وتحريم الخمر، والتنويم المغناطيسي، وأن الحرب الماضية كانت لرؤوس الأموال، وهكذا. قصة صموئيل والعجوز التي أحضرت روح صموئيل النبي وأخبرت طالوت بأنه سيقتل غدا، وعلم تحضير الأرواح وتاريخه في أمريكا وأوربا وانتشاره السريع وأنه مقتضى قوله تعالى: {كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ} [البقرة: ٧٣]، فهذه هي آيات الله في ذلك. الروحانية في فرنسا وألمانيا وإيطاليا والبلجيك وأسبانيا والبرتغال، وخطاب خمسة عشر ألف أمريكي لمجلس النوّاب الأمريكي في علم تحضير الأرواح. الملايين الذين اتبعوا هذا المذهب من الفلاسفة

والأطباء وغيرهم... إيضاح آية{إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ} [البقرة: ١٦٤] ووصف الكواكب والشمس وعلاقتها مع الأرض والماء، والهواء والأمطار والبحار، وأن العالم جسم واحد فيكون إلهه واحدا... ".

* * *

obeikandl.com

التفسير النفسي

obeikandl.com

obeikandl.com

التفسير النفسى

للدكتور محمد عثمان نجاتى كتاب بعنوان " القرآن وعلم النفس " عمل على أن يجمع فى صفحاته كل ما استطاع التنبه إليه من الحقائق النفسية التى وردت فى القرآن الكريم والاسترشاد بها فى تكوين صورة واضحة عن شخصية الإنسان وسلوكه، مما يمكن أن يمهد الطريق إلى نشوء دراسات جديدة فى علم النفس تحاول أن تضع الأسس لنظريات جديدة فى الشخصية تتفق حقائقها ومفاهيمها مع الحقائق والمفاهيم التى وردت في القرآن الكريم عن الإنسان.

وقد قسم المؤلف الكتاب إلى عدة فصول هى: دوافع السلوك في القرآن، وتحدث فيه عن الدوافع الإنسانية للقيام بسلوك ما، وهى نوعان: نوع فسيولوجى يتمثل فى دافع حفظ الذات، ودافع بقاء النوع الذى يتضمن الدافع الجنسى، ودافع الأمومة. وإلى جانب الدوافع الفسيولوجية لدينا كذلك الدوافع النفسية والروحية، وتشمل دوافع التملك والعدوان والتنافس والتدين، والدوافع اللاشعورية. وهناك أيضا الصراع بين الدوافع والسيطرة عليها وانحرافها. أما الفصل الثانى فيتعلق بالانفعالات في القرآن، وتطرق فيه المؤلف إلى بعض الانفعالات التى ذكرها القرآن فى وصف الإنسان: وهى الخوف والغضب والحب: حب الذات، وحب الناس، والحب الجنسي، والحب الأبوى، وحب الرسول ﷺ، إلى جانب الفرح والكره والغيرة والحسد والحزن والندم... كما تطرق أيضا إلى

التغيرات البدنية المصاحبة للانفعالات، وكيفية السيطرة عليها. ثم يأتى الفصل الثالث، وهو عن الإدراك الحسى في القرآن، وتحدث فيه المؤلف عن الحواس في القرآن الكريم والحواس الجلدية، والإدراك الحسي الخارج عن نطاق الحواس، والخداع البصرى وتأثير الدوافع والقيم في الانتباه والإدراك الحسى. ويدور الفصل الرابع على التفكير فى القرآن، وتعرض فيه المؤلف إلى خطوات التفكير فى حل المشكلات وأخطاء التفكير ذاته، ومنها التمسك بالأفكار القديمة، وعدم كفاية البيانات، والتحيز الانفعالى والعاطفى. ثم نبلغ الفصل الخامس، وهو عن التعلم في القرآن، وتحدث فيه المؤلف عن مصادر العلم، وتعلم اللغة، وتعلم إرادة الاختيار واتخاذ القرار والتقليد والتجربة العلمية والمحاولة والخطإ والتفكير، وطرق التعلم فى القرآن، ودوافع التعلم كما عرضها كتاب الله الكريم، واستعانته فى إثارتها بالقصص أو بالترغيب والترهيب أو بالأحداث المهمة. الفصل السادس: العلم اللدنى في القرآن، ويتناول الإلهام والأحلام والرؤى. وفى النهاية نصل إلى الفصل السابع، وموضوعه التذكر والنسيان فى القرآن، والنسيان والشيطان، والصلاة والزكاة والحج، والصبر والذكر والتوبة.

ولكى نزيد القارئ بيانا بطبيعة ذلك الكتاب وقيمته ومحتواه يحسن أن نتركه وجها لوجه مع مقدمة طبعته الثانية التى يقول فيها المؤلف: " إن القرآن الكريم كتاب دين وهداية أنزله الله سبحانه وتعالى على النبي محمد صلوات الله عليه وسلامه للناس كافة، يخاطب فيه عقل الإنسان ووجدانه، ويعلمه عقيدة التوحيد، ويزكيه بالعبادات، ويهديه إلى ما فيه خيره

وصلاحه في حياته الفردية والاجتماعية، ويرشده إلى الطريق الأمثل لتحقيق ذاته

ونمو شخصيته وترقي نفسه في مدارج الكمال الإنساني حتى يستطيع أن يحقق لنفسه السعادة في الدنيا والآخرة: {هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾} [الجاثية: ٢٠]، {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾} [يونس: ٥٧]، {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: ٨٩]، {كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾} [البقرة: ١٥١]، {هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾} [الجمعة: ٢].

وقد حث القرآن الكريم الناس على السير في الأرض وملاحظة ما في الكون من مخلوقات، والنظر والتفكير في السماوات والأرض وما فيها من خلق الله حتى يستطيعوا أن يستدلوا مما يرونه من بديع الصنع والخلق على وجود المبدع الخالق سبحانه وتعالى: {قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ} [العنكبوت: ٢٠]، {أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ} [الأعراف: ١٨٥]، {قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ} [يونس: ١٠١]. وقد عُنِيَ القرآن الكريم عناية كبيرة بحثّ الناس على التعلم وتحصيل العلم. ولا أدَلَّ على ذلك من أن أول آية نزلت من القرآن الكريم كانت تدعو إلى القراءة والتعلم، وتشيد بشأن القلم، وهو الأداة التي علّم بها الله سبحانه وتعالى الإنسان الكتابة، وعلمه ما لم يكن يعلم من

العلـوم: {ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾} [العلق: ١ - ٥].

وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بالقلم أداة الكتابة تكريما لشأن القلم والكتابة، وتنويها بفضلهما في عملية التعلم وتحصيل العلم: {نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾} [القلم: ١]. وقد أشاد القرآن الكريم بفضل العلم وكرَّم العلماء ورفع من شأنهم، ووضع العلم في مرتبة عالية كمرتبة الإيمان: {يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ} [المجادلة: ١١]، {وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾} [الروم: ٥٦].

ولا أدل على تكريم القرآن للعلم والعلماء من ذكره " للذين أوتوا العلم " قبل " الذين أوتوا الإيمان " في الآية السابقة، ومن ذكره أيضا " لأولي العلم " بعد " الملائكة " في الإقرار بوحدانية الله تعالى وبعدله وقدرته وحكمته في الآية التالية: {شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾} [آل عمران: ١٨]. ومن أدلة تكريم الله تعالى للعلم وإشادته بفضله أنه جل شأنه طلب من النبي صلوات الله عليه وسلامه أن يدعوه بالاستزادة من العلم: {وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا} [طه: ١١٤]. فالعلم والحكمة نعمتان من نعم الله العظيمة على الإنسان يخص بهما من يشاء من عباده المؤمنين الصالحين: {يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٦٩﴾} [البقرة: ٢٦٩].

وكانت نعمة العلم والحكمة من أهم النعم التي أنعم الله تعالى بها

على أصفيائه من الأنبياء والمرسلين كما أشارت إلى ذلك كثير من آيات القرآن الكريم. وحث القرآن الكريم الإنسان أيضا على التفكير في نفسه، وفي عجيب خلقه ودقة تكوينه. وهو بذلك يدفع الناس إلى دراسة النفس ومعرفة أسرارها، فمعرفة النفس تؤدي إلى معرفة الله سبحانه وتعالى: {وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾} [الذاريات: ٢٠ - ٢١]، {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى} [الروم: ٨]، {سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ} [فصلت: ٥٣]، {فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾} [الطارق: ٥ - ٧].

وفى هذا المعنى يقال: " من عرف نفسه فقد عرف ربه "، ويقال أيضا أَعْرَفُكم بنفسه أَعْرَفُكم بربه ". وفضلا عن ذلك فإن معرفة الإنسان لنفسه تساعده على ضبط أهوائها ووقايتها من الغواية والانحراف وتوجيهها إلى طريق الإيمان والعمل الصالح والسلوك السليم، مما يهيئ للإنسان الحياة الآمنة المطمئنة، ويحقق له السعادة في الدنيا والآخرة. وقد تضمن القرآن الكريم كثيرا من الآيات التي تعرضت لطبيعة تكوين الإنسان، ووصفت أحوال النفس المختلفة، وبينت أسباب انحرافها ومرضها، وطرق تهذيبها وتربيتها وعلاجها. وذلك أمر طبيعي في كتاب أنزله الله تعالى لهداية الإنسان وتوجيهه وتربيته وتعليمه. وكانت هذه الآيات الواردة في القرآن الكريم عن النفس بمثابة المعالم التي يسترشد بها الإنسان في فهم نفسه وخصالها المختلفة، وفي توجيهه إلى الطريق السليم في تهذيبها وتربيتها. ومن الممكن أن نسترشد بما ورد في القرآن

الكريم من حقائق عن الإنسان، وصفاته وأحواله النفسية في تكوين صورة صحيحة عن شخصية الإنسان، وعن الدوافع الأساسية التي تحرك سلوكه، وعن العوامل الرئيسية لتوافق شخصيته وتكاملها، ولتحقيق صحته النفسية، مما يكون من شأنه أن يمهد الطريق لقيام " علم للنفس " تتفق نتائجه وحقائقه مع الحقائق الصحيحة عن الإنسان التي نستمدها من كلام الله سبحانه وتعالى خالق الإنسان، وهو الأعلم بطبيعته وأسرار تكوينه: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾} [الملك: ١٤].

وليس هذا الكتاب الذي نقدمه الآن إلا محاولة لجمع الحقائق والمفاهيم النفسية التي وردت في القرآن الكريم والاسترشاد بها في تكوين صورة واضحة عن شخصية الإنسان وسلوكه، مما يمكن أن يمهد الطريق إلى نشوء دراسات جديدة في علم النفس تحاول أن تضع الأسس لنظريات جديدة في الشخصية تتفق حقائقها ومفاهيمها مع الحقائق والمفاهيم التي وردت في القرآن الكريم عن الإنسان. إن علماء النفس المحدثين، بتبنيهم مناهج البحث في العلوم الطبيعية، قد حصروا أنفسهم في دراسة الظواهر النفسية التي يمكن فقط ملاحظتها ودراستها دراسة موضوعية، وتجنبوا البحث في كثير من الظواهر النفسية الهامة التي يصعب إخضاعها للملاحظة أو البحث التجريبي. وبذلك أبعدوا النفس ذاتها من دراساتهم لأن النفس شيء لا يمكن ملاحظته، وقصروا دراساتهم على السلوك الذي يمكن ملاحظته وقياسه. وقد نادى بعضهم بتغيير اسم " علم النفس " وتسميته " علم السلوك "، لأن علم النفس الحديث يدرس السلوك ولا يدرس النفس. وكان من نتيجة هذا الاتجاه في تطبيق مناهج العلوم الطبيعية في بحوث علم النفس أن سادت في

دراساته وجهة النظر المادية التي ترجع جميع الظواهر النفسية إلى العمليات الفسيولوجية، والتي تنظر إلى الإنسان كنظرتهم إلى الحيوان، بل إنهم جعلوا من دراستهم لسلوك الحيوان المدخل الطبيعي لفهم سلوك الإنسان، مغفلين في كثير من الأحيان الاختلاف الكبير في طبيعة تكوين الإنسان الذي يتميز عن الحيوان بالروح، وهو أمر يغفلونه في دراساتهم إغفالا يكاد يكون تاما.

وقد أدى ذلك إلى كثرة بحوث علم النفس التي تتناول كثيرا من أنواع السلوك الإنساني السطحي وغير الهام، وإغفال دراسة كثير من الظواهر السلوكية الهامة في الإنسان التي تتناول النواحي الدينية والروحية والقيم الإنسانية العليا والحب في أسمى صوره الإنسانية بعيدا عن النواحي الجنسية التي تغلب على دراسة علماء النفس المحدثين للحب، وأثر العبادات في سلوك الإنسان، والصراع النفسي بين الدوافع البدنية والدوافع الروحية، وتوافق الشخصية عن طريق تحقيق التوازن بين الجانب المادي والجانب الروحي في الإنسان، وغير ذلك من الموضوعات التي سوف نتناولها في هذا الكتاب. ولقد لاحظ بعض علماء النفس المحدثين قصور علم النفس الحديث في دراسة النواحي الروحية في الإنسان. فقال إريك فروم (Erich fromm) مثلا، وهو محلل نفسي معاصر، إن اهتمام علم النفس الحديث " ينصب في أغلب الأحيان على مشكلات تافهة تتمشى مع نهج علمي مزعوم، وذلك بدلا من أن يضع مناهج جديدة لدراسة مشكلات الإنسان الهامة. وهكذا أصبح علم النفس يفتقر إلى موضوعه الرئيسي، وهو الروح. وكان معنيًا بالميكانيزمات وتكوينات ردود الأفعال والغرائز دون أن يُعْنَى بالظواهر الأساسية المميزة أشد التميز للإنسان، كالحب والعقل والشعور

والقيم ". وقد فطن في السنوات الأخيرة عدد قليل جدا من علماء النفس إلى أهمية دراسة هذه الناحية الروحية من الإنسان، وبدأت محاولات لدراسة بعض الظواهر الروحية مثل التخاطر والاستشفاف، غير أن هذه المحاولات لا زالت في بدايتها، ولم تصل بعد إلى نتائج دقيقة يمكن ضمها باطمئنان إلى مجموعة معلوماتنا الدقيقة عن الإنسان. ولا شك أننا في حاجة إلى مزيد من الاهتمام بدراسة تراثنا الإسلامي، مبتدئين بالقرآن الكريم والحديث الشريف، ثم متتبعين تطور التفكير في الدراسات النفسية لدى الفلاسفة والمفكرين المسلمين بهدف معرفة المفاهيم النفسية الإسلامية فهما صحيحا يكون هاديا لنا في دراساتنا النفسية، وعونا لنا في تكوين نظرياتنا الخاصة عن الشخصية الإنسانية بحيث نجمع بين دقة البحث العلمي الأصيل والحقائق التي وردت في القرآن الكريم عن الإنسان، وهي حقائق يقينية لأنها صدرت عن الله تعالى خالق الإنسان: { لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ } [فصلت: ٤٢].

ويوجد كتاب آخر بنفس عنوان الكتاب السابق الذى ألفه الدكتور نجاتى، وهو " القرآن وعلم النفس " للدكتور عبد العلى الجسمانى. كما ألف الدكتور مفتاح محمد عبد العزيز كتابا ثالثا بذات العنوان، وألف الدكتور حسان شمي باشا كتابًا حول جانب نفسى مهم هو " النوم والأرق والأحلام بين الطب والقرآن ". وبالإضافة إلى ما ذكر هناك دراسات وبحوث متناثرة فى الدوريات المختلفة لعدد من المتخصصين فى مجال الدراسات النفسية منها ما كتبه بعض الباحثين عن الإعجاز السلوكى فى القرآن الكريم وما يتعلق بذلك من التوجيهات الإلهية الخاصة بتعديل

السلوك الإنسانى، وكذلك الإعجاز القرآنى فى مجال العلاج المعرفى السلوكى... إلخ.

* * *

obeikandl.com